

إِتْخَافُ الْبُرْرَةَ

بِتَفْسِيرِ

خَوَاتِمِ سُوْرَةِ الْبَقْرَةِ

تَأْلِيفِ

أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ زَيْدِ الْحَجَوْرِيِّ الرَّعْكْرِيِّ

محفوظ
جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٨ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

يقول الله ﷻ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٨٤﴾ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٣٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿البقرة﴾:

[٢٨٤-٢٨٦].

وقد طلب مني بعض من تعينت إجابته تفسير هذه الآيات، فلم أجد بُدًّا من ذلك، فعلقت عليها تعليقة صوتية، فخطها جزاه الله خيرًا، ثم شرح الله تعالى صدري لبيان بعض معانيها وما فيها؛ علَّ الله تعالى أن ينفعني بها قبل غيري.

إنحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة

فهي من أذكار الليلة، ويحتاج المسلم أن يعلم معنى ما يقول ويفعل، زد على ذلك ما سيأتي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وفيه: «وَحَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتْهُ».

والحرف هنا الكلمة التي لها معنى، قال العلامة علي القاري رحمته الله في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (٤/ ١٤٦٤): (لَنْ تَقْرَأَ) الْخِطَابُ لَهُ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَالْمُرَادُ هُوَ وَأُمَّتُهُ؛ إِذِ الْأَصْلُ مُشَارَكَتُهُمْ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ، إِلَّا مَا اخْتَصَّ بِهِ. (بِحَرْفٍ مِنْهُمَا) أَيُّ: بِكُلِّ حَرْفٍ مِنَ الْفَاتِحَةِ وَالْحَوَاتِيمِ، قَالَ التُّورِبَشْتِيُّ: الْبَاءُ زَائِدَةٌ يُقَالُ: أَخَذْتُ بِزِمَامِ النَّاقَةِ وَأَخَذْتُ زِمَامَهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لِلْصَّاقِ الْقِرَاءَةُ بِهِ وَأَرَادَ بِالْحَرْفِ الطَّرْفَ مِنْهَا فَإِنَّ حَرْفَ الشَّيْءِ طَرْفُهُ، وَكُنِيَ بِهِ عَنْ جُمْلَةٍ مُسْتَقَلَّةٍ. وَقَوْلُهُ: (إِلَّا أُعْطِيَتْهُ) حَالٌ وَالْمُسْتَشْتَى مِنْهُ مُقَدَّرٌ، أَيُّ: مُسْتَعِينًا بِهِمَا عَلَى قَضَاءِ مَا يَسْخُجُ مِنَ الْحَوَائِجِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُ، أَيُّ: أُعْطِيَتْ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ تِلْكَ الْجُمْلَةُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ، كَقَوْلِهِ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، كَقَوْلِهِ: ﴿عُفْرَانُكَ رَبَّنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وَنَظَائِرُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ الْمَسْأَلَةِ فِيمَا هُوَ حَمْدٌ وَثَنَاءٌ أُعْطِيَتْ ثَوَابُهُ... وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ بِالْحَرْفِ: حَرْفُ التَّهَجِّي، وَمَعْنَى قَوْلِ: (أُعْطِيَتْهُ) حِينَئِذٍ: أُعْطِيَتْ مَا تَسْأَلُ مِنْ حَوَائِجِكَ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ. انتهى

ثم إن ما تضمنته من الدعاء به صلاح الحال والمآل والدنيا والآخرة والنصر والظفر، فالحمد لله تعالى الذي شرع لنا ما يكون سبباً لحفظنا في الدارين.

والناظر في معاني هذه الآيات وما يتعلق بها من أسباب النزول وما فيها من الفضل يجد أنها قد تضمنت جميع نواحي الدين العلمية والعملية، وبيان ذلك فيما يلي:

- فيها بيان أركان الإيمان الستة على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.
- فيها بيان ركن الإحسان وحسن مراقبة الله تعالى.
- فيها بيان أركان الإسلام الخمسة وإن لم يكن ذلك صريحاً فهو باللزوم.
- فيها بيان أهمية الدعاء.
- فيها بيان فضل المسارعة إلى الخيرات وما عليه الصحابة من الفضل في هذا الباب وغيره.
- فيها بيان فضل طاعة الله وطاعة النبي ﷺ وطاعة أولياء الأمر.
- فيها بيان شفقة النبي ﷺ على أمته ورحمته لهم وحرصه عليهم.
- فيها بيان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفضله وأنه سبب السلامة في الدارين.
- فيها بيان أهمية النصيحة وما يتحقق على إثرها من المصالح، لاسيما مع الاستجابة لها والعمل بها.
- فيها خطر الاعتراض على شرع الله تعالى، وأنه سبب هلاك كثير من الأمم السالفة، أسأل الله تعالى السلامة.
- فيها بيان رحمة الله تعالى بعباده، وأنه لا يكلف العبد إلا وسعه وقدرته، ولا يؤاخذة إلا بعمله، وهذا من تمام عدله تعالى وفضله.
- فيها بيان رفع المؤاخذة بالجهل والخطأ والنسيان وبيان أن ذلك من موانع التكفير.

- فيها بيان يُسر هذا الدين وتميِّزه على غيره، فهو دين الله تعالى الحق البعيد عن غلو الغالين وجفاء المبطلين، فهو الدين الوسط العدل الخيار.
 - فيها بيان التوسل المشروع، ومن ذلك ما يكون بأسماء الله تعالى وصفاته.
 - فيها بيان أن للعبد قدرة محدودة، وما فرض الله ﷻ عليه وشرع هو في حدود قدرته وطاقته، فلا عذر لمفرط.
 - فيها فضيلة سؤال الله تعالى العفو والمغفرة والرحمة، والفرق بينها، وبحصول العبد على هذه الثلاثة من الله تعالى يصلح حاله ومآله.
 - فيها عظم ولاية الله تعالى للعبد، فمن تولاه الله تعالى حفظه ونصره وأعانته وهداه واصطفاه واجتباها.
 - فيها أن النصر من الله تعالى على الكافرين وغيرهم من المخالفين.
 - فيها أن الإسلام هو دين الله تعالى الحق، وأي دين سواه فهو كفر وضلال والعياذ بالله.
 - وفيها إشارة إلى جهاد الكفار والمخالفين للشرع.
- إلى غير ذلك من المعاني الجليلة العظيمة التي قد تذكرك عند التفصيل.
- وسيمت هذا المبحث اليسير: "إتحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة".
- وأسأل الله تعالى أن يغفر لي ولوالديّ ولمشاخي وللمسلمين.

والحمد لله رب العالمين

كتبه: أبو محمد الحجوري عبد الحميد بن يحيى الزُّعكري

٢٢ رجب ١٤٣٨ هـ في مكة حرسها الله تعالى

بعض فضائل الآيتين من آخر سورة البقرة

قد جاء بفضل الآيتين عدة أحاديث ثوابت عن النبي ﷺ، منها:

□ حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ» متفق عليه: البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧).

قال ابن بطال في "شرح صحيح البخاري" (٢٤٧/١٠):

إذا كان من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة كفتاه، ومن قرأ آية الكرسي كان عليه من الله حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح، فما ظنك بمن قرأها كلها من كفاية الله له وحرزه وحمايته من الشيطان وغيره، وعظيم ما يدخر له من ثوابها. وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ. وروى معمر، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله: «تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ شَافِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، تَعَلَّمُوا الْبَقْرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ تَعَلَّمُوا الزَّهْرَاوَيْنِ؛ فَإِنَّهُمَا يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا عَمَّامَتَانِ أَوْ عِيَّائَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ يُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبَيْهِمَا تَعَلَّمُوا الْبَقْرَةَ؛ فَإِنَّ تَعْلِيمَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». وقال ابن مسعود: إن الشيطان يخرج من البيت الذي يقرأ سورة البقرة فيه. انتهى

□ وحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ،

إنحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة

فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيْتَهَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيْتَهُ» أخرجه مسلم (٨٠٦).

□ وفي "صحيح مسلم" (١٧٣): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: (لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، انْتَهَى بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ، إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ فَيَقْبُضُ مِنْهَا، وَإِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يَهْبُطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا فَيَقْبُضُ مِنْهَا)، قَالَ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦]، قَالَ: «فَرَأَسُ مَنْ ذَهَبٍ»، قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئًا، الْمُقْحِمَاتُ.

□ وفي "مسند أحمد" (٤٤٦/٣٥): عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي».

□ وفيه (٢٨٧/٣٨): عَنْ حُدَيْفَةَ رضي الله عنه قَالَ: «فُضِّلَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ لَهَا الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْحِدًا، وَجُعِلَتْ صُفُوفُهَا عَلَى صُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ»، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ ذَا: «وَأُعْطِيَتْ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي»، قَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: كَلَّهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

□ وفي "معجم الطبراني الكبير" (٢١١/٩): بسند صحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: أَنْزِلَتْ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ: ﴿عَاَمَنَ الرَّسُولُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ.

□ وفيه بسند حسن (٢٠٣/١٧): عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ، عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ، أَنَّ أَبَا مَسْعُودٍ الْبَدْرِيَّ رضي الله عنه قَالَ: مَنْ قَرَأَ خَاتِمَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَجْزَأَتْ عَنْهُ قِرَاءَةُ لَيْلَةٍ. وَقَالَ: أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ.

□ وأخرج الإمام أحمد في "المسند" (٥٦١ / ٢٨): عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اقْرَأِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنِّي أُعْطِيْتُهُمَا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ». وفي الحديث عن عنة ابن إسحاق، لكنه متابع، زد على ذلك أنه يشهد له حديث أبي مسعود رضي الله عنه المتقدم.

□ وفي "سنن الترمذي" (٢٨٨٢)، وأخرجه أحمد (١٨٤١٤) وغيره: عَنْ النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفَيِّ عَامَ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرُبُهَا شَيْطَانٌ». قال الترمذي هذا حديث غريب. قلت: وإسناده حسن. وأخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (٢٨٥ / ٧) عَنْ أَبِي قِلَابَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفَيِّ عَامَ، وَأَنْزَلَ فِيهِ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، لَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ، فَيَقْرُبُهَا شَيْطَانٌ». وكان في الحديث اختلافاً، والله أعلم.

□ وفي "تفسير ابن أبي حاتم" (٣٠٧٠): عَنْ حَكِيمِ ابْنِ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ قَالَ جَبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ الثَّنَاءَ عَلَيْكَ وَعَلَى قَوْمِكَ. فَسَلْ. تُعْطَى فَسَأَلَ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. وأخرجه ابن جرير.

□ وفي "المعجم الكبير" للطبراني (١٣٧ / ٩) قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: (مَنْ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ فَقَدْ أَكْثَرَ وَأَطْيَبَ).

وغير ذلك في الباب من الأحاديث والآثار مما لم أطلع عليه أو لم يثبت
سنده والتي تدل في مجموعها على ما دلت عليه هذه الأحاديث الثابتة عن
النبي ﷺ.

معنى قوله ﷺ: «كفتاه»:

قال النووي في "شرح مسلم" (١٥٣/٢): قيل: كفتاه من قيام تِلْكَ
اللَّيْلَةِ، وَقِيلَ: كَفْتَاهُ الْمَكْرُوهَ فِيهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

وقال في "شرح مسلم" (٩١/٦): قَوْلُهُ ﷺ: «الْأَيَّتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ
الْبَقَرَةِ مَنْ قَرَأَهُمَا فِي لَيْلَةٍ كَفْتَاهُ» قِيلَ: مَعْنَاهُ كَفْتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَقِيلَ: مَنْ
الشَّيْطَانِ، وَقِيلَ: مِنَ الْآفَاتِ. وَيَحْتَمِلُ مِنَ الْجَمِيعِ. انتهى

وفي "الدر المنثور في التفسير بالمأثور" (١٣٩/٢) قال: وأخرج ابن
الضريس عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قَالَ: مَنْ قَرَأَ خَاتِمَةَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ
أَجَزَّتْ عَنْهُ قِيَامُ لَيْلَةٍ. وَقَالَ: أُعْطِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ
تَحْتَ الْعَرْشِ. انتهى

وقال القرطبي في "المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم" (٦٧/٧):
وقوله: (من قرأ هاتين الآيتين في ليلة كفتاه) أي: من قيام الليل، [أو] من حزبه،
إن كان له حزب من القرآن، وقيل: وقتاه شر كل شيطان، وكل ذي شر؛ كما
جاء في أن: (من قرأ آية الكرسي لم يزل عليه من الله تعالى حافظ، ولم يقربه
شيطان حتى يصبح)، أو لكثرة ما يحصل له بقراءتهما من الثواب والأجر، والله
أعلم. انتهى

وسبب كفايتها له: ما فيها من معاني الإيمان والإسلام والالتجاء إلى الله ﷻ والاستعانة به والتوكل عليه وطلب المغفرة والرحمة منه، وغير ذلك مما تضمنته من المعاني، والله أعلم.

والشاهد أن لهاتين الآيتين فضل عظيم، وكان نزولهما بعد نزول قول الله ﷻ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

□ ففي "صحيح مسلم" (١٢٥): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاتَّوَأ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكْبِ، فَقَالُوا: أَيُّ رَسُولِ اللَّهِ، كُفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ، الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نَطِيقُهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ»، قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفِرْقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا

كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴿البقرة: ٢٨٦﴾
 «قَالَ: نَعَمْ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ «قَالَ: نَعَمْ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ «قَالَ: نَعَمْ» ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ «قَالَ: نَعَمْ».

في الحديث فضل الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ومسارعتهم إلى الخير فلا رحم الله من يطعن فيهم أو يتنقصهم من الرافضة والباطنية والخوارج ومن إليهم فهم أبر الناس قلباً وأشدهم مسارعة إلى مرضاة الله تعالى وأكثرهم عملاً بالكتاب والسنة اصطفاهم الله تعالى لنصرة نبيه ﷺ فمن دونهم مقصر ومن فوقهم محسر وإنيهم لعل صراط مستقيم، وقد ذكرت جملة من فضائلهم على الإجمال والتفصيل في كتابي سلامة الخلف في طريقة السلف وبالله التوفيق.

□ وفيه (١٢٦): عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ﴿البقرة: ٢٨٤﴾، قَالَ: دَخَلَ قُلُوبَهُمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَمْ يَدْخُلْ قُلُوبَهُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَسَلَّمْنَا» قَالَ: فَأَلْقَى اللَّهُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ «قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ» ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ «قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ» ﴿وَأَعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ ﴿البقرة: ٢٨٦﴾ «قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ».

مسألة: تسمية سورة البقرة بهذا الاسم:

في البخاري (١٧٥٠)، ومسلم (١٢٩٦): عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: سَمِعْتُ الْحَجَّاجَ بْنَ يُونُسَ، يَقُولُ وَهُوَ يُحْطَبُ عَلَى الْمِنْبَرِ: أَلَّفُوا الْقُرْآنَ كَمَا أَلَّفَهُ جِبْرِيلُ، السُّورَةَ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا الْبَقْرَةَ، وَالسُّورَةَ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا النِّسَاءَ، وَالسُّورَةَ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا أَلْ عِمْرَانَ. قَالَ: فَلَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِهِ، فَسَبَّهَ وَقَالَ: حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ، أَنَّهُ كَانَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، فَأَتَى جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ، فَاسْتَبَطْنَ الْوَادِي، فَاسْتَعْرَضَهَا، فَرَمَاهَا مِنْ بَطْنِ الْوَادِي بِسَبْعِ حَصِيَّاتٍ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ، قَالَ فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّ النَّاسَ يَرْمُونَهَا مِنْ فَوْقِهَا فَقَالَ: هَذَا، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَقَامُ الَّذِي أَنْزَلْتَ عَلَيْهِ سُورَةَ الْبَقْرَةِ.

والصحيح جواز التسمية؛ لهذا الحديث، قال النووي في "شرح مسلم" (١٨٢/٤): قَوْلُهُ: (فَأَفْتَحَ بِسُورَةِ الْبَقْرَةِ) فِيهِ جَوَازُ قَوْلِ سُورَةِ الْبَقْرَةِ وَسُورَةِ النِّسَاءِ وَسُورَةِ الْمَائِدَةِ وَنَحْوِهَا، وَمَنْعُهُ بَعْضُ السَّلَفِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يُقَالُ إِلَّا السُّورَةُ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا الْبَقْرَةَ وَنَحْوُ هَذَا، وَهَذَا خَطَأٌ صَرِيحٌ، وَالصَّوَابُ جَوَازُهُ؛ فَقَدْ ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِنْ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَغَيْرِهِمْ. انتهى

مسألة: هل هذه الآية منسوخة أم محكمة:

اختلف العلماء في هذه الآية هل هي منسوخة بما بعدها، أم أنها على عمومها وحكمها.

□ ففي "مسند أحمد" (٣٠٧٠٩) عَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبَّاسٍ، كُنْتُ عِنْدَ ابْنِ عُمَرَ، فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فَبَكَى. قَالَ: أَيُّ آيَةٍ؟

قُلْتُ: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ حِينَ أَنْزَلْتُ، غَمَّتْ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَمًّا
 شَدِيدًا، وَغَاطَتْهُمْ غَيْظًا شَدِيدًا، يَعْنِي، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلَكْنَا، إِنْ كُنَّا
 نُوْأخِذُ بِمَا تَكَلَّمْنَا، وَبِمَا نَعْمَلُ، فَأَمَّا قُلُوبُنَا فَلَيْسَتْ بِأَيْدِينَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:
 «قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا» قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا، قَالَ: فَسَخَّطَهَا هَذِهِ الْآيَةُ:
 ﴿ءَاْمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥] إِلَى ﴿لَا يُكَلِّفُ
 اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، فَتُجَوِّزُ لَهُمْ
 عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأَخِذُوا بِالْأَعْمَالِ.

وقال بالنسخ ابن عباس، وابن مسعود، وعائشة، وأبوهريرة رضي الله عنهم،
 والشعبي، وعطاء، ومحمد بن سيرين، ومحمد بن كعب، وموسى بن عبيدة،
 وجماعة من الصحابة والتابعين.

ومن روي عنه القول بأنها محكمة: ابن عباس، قلت: لكنه يخالف الثابت
 عنه كما ترى. وروي عن عكرمة، والشعبي، ومجاهد: إنها محكمة مخصوصة،
 وهي في معنى الشهادة التي نهى عن كتمها، ثم أعلم في هذه الآية أن الكاتم لها
 المخفي ما في نفسه محاسب. ذكره القرطبي في "تفسيره" (٢/٤٢١).

قال شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (١٠/٧٦٢): وَهَذِهِ الْآيَةُ
 وَإِنْ كَانَ قَدْ قَالَ طَائِفٌ مِنَ السَّلَفِ إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ، كَمَا رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي
 صَحِيحِهِ عَنْ مَرْوَانَ الْأَصْفَرِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ - وَهُوَ ابْنُ عُمَرَ
 - إِنَّهَا نُسِخَتْ، فَالْنَسْخُ فِي لِسَانِ السَّلَفِ أَعْمٌ مِمَّا هُوَ فِي لِسَانِ الْمُتَأَخِّرِينَ، يُرِيدُونَ
 بِهِ رَفْعَ الدَّلَالَةِ مُطْلَقًا، وَإِنْ كَانَ تَخْصِيصًا لِلْعَامِّ أَوْ تَقْيِيدًا لِلْمُطْلَقِ وَغَيْرَ ذَلِكَ،

كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي عُرْفِهِمْ. وَقَدْ أَنْكَرَ آخَرُونَ نَسْخَهَا لِعَدَمِ دَلِيلِ ذَلِكَ. وَزَعَمَ قَوْمٌ: أَنَّ ذَلِكَ خَبْرٌ، وَالْخَبْرُ لَا يُنْسَخُ. وَرَدَّ آخَرُونَ بِأَنَّ هَذَا خَبْرٌ عَنْ حُكْمِ شَرْعِيٍّ. كَالْخَبْرِ الَّذِي بِمَعْنَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ. وَالْقَائِلُونَ بِنَسْخِهَا يَجْعَلُونَ النَّاسِحَ لَهَا الْآيَةَ الَّتِي بَعْدَهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:

٢٨٦] كَمَا رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، فَيَكُونُ الْمَرْفُوعُ عَنْهُمْ مَا فَسَّرَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ، وَهُوَ مَا هَمُّوا بِهِ وَحَدَّثُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الْأُمُورِ الْمَقْدُورَةِ، مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ. وَرَفَعَ عَنْهُمْ الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا أُسْتُكِرَ هُوَا عَلَيْهِ، كَمَا رَوَى ابْنُ مَاجَهَ وَغَيْرُهُ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ وَمَا أُسْتُكِرَ هُوَا عَلَيْهِ». وَحَقِيقَةُ الْأَمْرِ: أَنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] لَمْ يَدُلَّ عَلَى الْمَوَازِينِ بِذَلِكَ؛ بَلْ دَلَّ عَلَى الْمُحَاسَبَةِ بِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِهِ يُحَاسَبُ أَنْ يُعَاقَبَ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] لَا يَسْتَلْزِمُ أَنَّهُ قَدْ يَغْفِرُ وَيُعَذِّبُ بِلَا سَبَبٍ وَلَا تَرْتِيبٍ، وَلَا أَنَّهُ يَغْفِرُ كُلَّ شَيْءٍ، أَوْ يُعَذِّبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهُ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ إِلَّا مَعَ التَّوْبَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَالْأَصْلُ أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ مَا كَانَ مُجَامِعًا لِأَصْلِ الْإِيمَانِ وَمَا كَانَ مُنَافِيًا لَهُ، وَيُفَرَّقُ أَيْضًا بَيْنَ مَا كَانَ مَقْدُورًا عَلَيْهِ فَلَمْ يَفْعَلْ وَبَيْنَ مَا لَمْ يُتْرَكْ إِلَّا لِلْعَجْزِ عَنْهُ. انتهى

وسياتي مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

تفاضل القرآن والأسماء والصفات:

ويدل فضل الآيتين على مسألة مهمة وهي القول بتفاضل القرآن وكذا
تفاضل الأسماء والصفات، وهذا هو القول المعبر الذي تدل عليه أدلة الكتاب
والسنة، وقد قلت في كتابي «القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن»:

تفاضل أسماء الله تعالى وصفاته

قال البخاري (٤٤٧٤): حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ:
حَدَّثَنِي حُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى،
قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ
السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ،
قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟»، قَالَ:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ «هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي
أُوتِيَتْهُ».

قال البخاري (٤٤٧٤): حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا يَحْيَى، عَنْ شُعْبَةَ، قَالَ:
حَدَّثَنِي حُبَيْبُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى،
قَالَ: كُنْتُ أُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ، فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ أُجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا
رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي، فَقَالَ: «أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]». ثُمَّ قَالَ لِي: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ
السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ». ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُخْرِجَ،

قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: «لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةٌ هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟»، قَالَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿ هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ. »

قال البخاري رحمته الله (٥٠١٣): حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ، أَخْبَرَنَا مَالِكٌ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ يَرُدُّهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ».

قال شيخ الإسلام رحمته الله كما في «مجموع الفتاوى» (٢١١/١٧): فتفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات. اهـ

ومن هذا الباب القول في الاسم الأعظم:

وقد ورد في خصوص (اسم الله الأعظم) عدة أحاديث، أشهرها:

حديث أبي أمامة رضي عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي سُورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثٌ: فِي (البَقْرَةِ) وَ(آلِ عِمْرَانَ) وَ(طه)».

رواه ابن ماجه (٣٨٥٦) وفي سنده غيلان بن أنس مجهول.

وحديث أنسٍ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جَالِسًا وَرَجُلٌ يُصَلِّي ثُمَّ دَعَا: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْمَنَّانُ بَدِيعِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ)، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ دَعَا اللَّهُ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ».

رواه الترمذي (٣٥٤٤)، وأبوداود (١٤٩٥)، والنسائي (١٣٠٠)، وابن ماجه (٣٨٥٨).

وحديث بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)، فَقَالَ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أُجَابَ».

رواه الترمذي (٣٤٧٥)، وأبوداود (١٤٩٣)، وابن ماجه (٣٨٥٧). انتهى النقل من «القواعد الحسان».

وهو حديث صحيح، وخرجه الوداعي رضي الله عنه في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين».

وقد اختلف العلماء في الاسم الأعظم، والذي عندي أنه اسم الجلالة (الله)؛ لأن عليه مدار جميع الأسماء، وهو الجامع لمعانيها، وكل الأسماء تابعة له. وللعلماء أقوال في هذا الاسم ذكرتها نقلاً عن الحافظ مع التعقيب على بعض الأدلة التي لم تثبت، في كتابي: «القواعد الحسان في أسماء وصفات الرحمن» وبالله التوفيق.

وقال شيخ الإسلام كما في «مجموع الفتاوى» (١٧/١٢٩): فنقول: قَدْ عَلِمَ أَنَّ تَفَاضُلَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ لَيْسَ بِاعْتِبَارِ نَسْبَتِهِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا، وَبِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهِ الْمُبِينَةِ لِمَعَانِيهِ. وَالَّذِي قَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ فَضَّلَ مِنَ السُّورِ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلَهَا». وَالْأَحْكَامُ الشَّرْعِيَّةُ

تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ... وَفَضَّلَ مِنَ الْآيَاتِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ
 لِأَبِي بِنِ كَعْبٍ: «أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قَالَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ
 إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ: «لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا
 الْمُنْذِرِ». وَلَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ وَاحِدَةٌ تَضَمَّنَتْ مَا تَضَمَّنَتْهُ آيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ
 اللَّهُ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْحَدِيدِ وَآخِرِ سُورَةِ الْحُشْرِ عِدَّةَ آيَاتٍ لَا آيَةً وَاحِدَةً. انتهى



تفسير الآيات وبيان معانيها وبعض أحكامها

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾:

فيها بيان عموم ملك الله تعالى، فكل موجود سواه تعالى فالله مالكة والمتصرف فيه، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُوتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]، قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِوَبُ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِيهِ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩] يُقَرَّرُ تَعَالَى وَحْدَانِيَّتُهُ، وَاسْتِقْلَالُهُ بِالْحَلْقِ وَالْتَّصَرُّفِ وَالْمُلْكِ، لِيُرْشِدَ إِلَى أَنَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا تَبْغِي الْعِبَادَةَ إِلَّا لَهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ فَهُوَ تَعَالَى صَاحِبُ الْمُلْكِ الْمَطْلُوقِ.

وهذا يدل على غناه تعالى عن عباده قال تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ

إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

ويدل أيضاً على وجوب عبادة الله تعالى وإفراده بذلك، فهو المالك للعبد،

فيجب على العبد أن يطيعه ويعبده ويتقرب إليه بما شرع سبحانه وتعالى.

وفي الآية دلالة أنه لا يجوز التصرف في شيء من ملك الله تعالى إلا بإذنه وكما شرع، فالحلل ما أحله، والحرام ما حرمه، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، وفي صحيح مسلم (٥٦٥) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: لَمْ نَعُدْ أَنْ فُتِحَتْ خَيْبَرُ، فَوَقَعْنَا أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي تِلْكَ الْبُقْلَةِ الثُّومِ وَالنَّاسِ جِيَاعٌ، فَأَكَلْنَا مِنْهَا أَكْلاً شَدِيداً، ثُمَّ رُحْنَا إِلَى الْمَسْجِدِ، فَوَجَدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرِّيحَ فَقَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ الْحَبِيبَةِ شَيْئاً، فَلَا يَقْرَبَنَا فِي الْمَسْجِدِ» فَقَالَ النَّاسُ: حُرِّمَتْ، حُرِّمَتْ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَيْسَ بِي تَحْرِيمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لِي، وَلَكِنَّهَا شَجَرَةٌ أَكْرَهُ رِيحَهَا».

قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تُبَدَّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحْسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾:

فيها بيان أن الله تعالى مطلع على السرائر والضمائر، وأنه لا تخفى عليه خافية، فعلمه محيط بكل شيء، كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. ومفاتيح الغيب خمسة، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴿ [لقمان: ٣٤]، وفي البخاري (٤٦٢٧): عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَيْرٌ ﴾. إلى غير ذلك من الأدلة على سعة علمه تعالى، فعلى العبد أن يستحضر مثل هذه الأدلة، فتكون زاجرة له عن الوقوع فيما يغضب الرب تعالى. وفي حديث عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ قُرَشِيَّانِ وَثَقَفِيٌّ - أَوْ ثَقَفِيَّانِ وَقُرَشِيٌّ - كَثِيرَةٌ شَحْمٌ بَطُونِهِمْ، قَلِيلَةٌ فَقَهُ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَتُرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ؟ قَالَ الْآخَرُ: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا، وَقَالَ الْآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ [فصلت: ٢٢] الآية. متفق عليه.

وهذا الذي جعل الصحابة يتعاضمون شأن هذه الآية؛ من أن الله ﷻ سيحاسبهم على ما أسروا وأعلنوا، أسأل الله العافية.

قال ابن كثير في "تفسيره" (٧٢٨/١): يُخْبِرُ تَعَالَى أَنْ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُنَّ، وَأَنَّهُ الْمُطَّلِعُ عَلَى مَا فِيهِنَّ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ الظُّوَاهِرُ وَلَا السَّرَائِرُ وَالصَّمَائِرُ، وَإِنْ دَقَّتْ وَخَفِيَتْ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ سَيَحَاسِبُ عِبَادَهُ عَلَى مَا فَعَلُوهُ وَمَا أَخْفَوْهُ فِي صُدُورِهِمْ كَمَا قَالَ: ﴿ قُلْ إِنْ تَخْفَوُا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، وَقَالَ: ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، وَالآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ جِدًّا، وَقَدْ أَخْبَرَ فِي هَذِهِ بِمَزِيدٍ عَلَى الْعِلْمِ، وَهُوَ: الْمُحَاسَبَةُ عَلَى ذَلِكَ، وَلِهَذَا لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ

الآية اشتد ذلك على الصحابة، **﴿هنا﴾**، وخافوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم. انتهى

وفي "حلية الأولياء" (٣٠٥ / ١) عن نافع مولى ابن عمر قال: ما قرأ ابن عمر هاتين الآيتين قط من آخر سورة البقرة إلا بكى: **﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾** [البقرة: ٢٨٤] الآية. ثم يقول: (إن هذا لإحصاء شديد).

قوله تعالى: **﴿يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾**:

فيها بيان أن الله تعالى خلق العباد ولم يتركهم هملاً، بل أرسل إليهم رسلاً وأمر بطاعته وعبادته قال تعالى: **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾** (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش **الكبري** [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

ويعني تعالى بقوله يحاسبكم: يحتسب به عليكم من أعماله، فيجازي من شاء منكم من المسيئين بسوء عمله، وغافر لمن شاء منكم من المسيئين. أفاده الطبري.

وهو تعالى سريع الحساب **﴿ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب﴾** [إبراهيم: ٥١].

وفي "الصحيحين" عن عائشة **﴿هنا﴾** قالت: قال رسول الله **ﷺ**: «ليس أحد يحاسب إلا هلك» قالت: قلت: يا رسول الله جعلني الله فداءك، أليس يقول الله **ﷻ**: **﴿فأما من أوتى كنبه، بيمينه﴾** (٧) فسوف يحاسب حساباً

يَسِيرًا ﴿الانشقاق: ٧-٨﴾ قَالَ: «ذَاكَ الْعَرُضُ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكٌ». وفي هذا تحذير للعباد من التهادي في السيئات، والله المستعان.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» متفق عليه. وفي لفظ مسلم (١٢٩): «قَالَ اللَّهُ: إِذَا تَحَدَّثَ عَبْدِي بِأَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً، فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ حَسَنَةً مَا لَمْ يَعْمَلْ، فَإِذَا عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً فَأَنَا أَغْفِرُهَا لَهُ، مَا لَمْ يَعْمَلْهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَأَنَا أَكْتُبُهَا لَهُ بِمِثْلِهَا». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، وَإِنَّ عَبْدَكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً - وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ - فَقَالَ: ارْقُبُوهُ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَارْقُبُوهُ، وَإِنْ تَرَكَهَا فَارْقُبُوهُ، وَإِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَاي». وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَحْسَنَ أَحَدٌ إِسْلَامَهُ، فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ تُكْتَبُ بِمِثْلِهَا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ ﻋَظِيمًا».

قال النووي رحمه الله في «شرح على مسلم» (١٥٢/٢): قَالَ الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيُّ رحمه الله: فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْحَفِظَةَ يَكْتُبُونَ أَعْمَالَ الْقُلُوبِ وَعَقْدَهَا، خِلَافًا لِمَنْ قَالَ: إِنَّهَا لَا تَكْتُبُ إِلَّا الْأَعْمَالَ الظَّاهِرَةَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انتهى

ومما يدل على أن الله تعالى لا يؤاخذ بما في الصدور من الخواطر الزائلة غير المستقرة: ما في مسلم (١٣٢): عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاطَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ».

وأخرج (١٣٣): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: سئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْوَسْوَسَةِ، قَالَ: «تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ».

قال النووي رحمته الله في «شرح على مسلم» (١٥٤/٢): فَقَوْلُهُ ﷺ ذَلِكَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ، وَ(مَحْضُ الْإِيمَانِ) مَعْنَاهُ: اسْتِعْظَامُكُمْ الْكَلَامَ بِهِ هُوَ صَرِيحُ الْإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اسْتِعْظَامَ هَذَا وَشِدَّةَ الْخَوْفِ مِنْهُ وَمِنَ النَّطْقِ بِهِ فَضْلاً عَنِ اعْتِقَادِهِ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ اسْتِكْمَالًا مُحَقَّقًا، وَأَنْتَمَتْ عَنْهُ الرِّيْبَةُ وَالشُّكُوكُ. انتهى

فدل على أن ما في النفس لا يؤاخذ به المكلف، إلا إذا كان عازماً عليه. قال العيني في «عمدة القاري» (٢٥٥/٢٠): قَوْلُهُ: (مَا لَمْ تَعْمَلْ) أَي: فِي الْعَمَلِيَّاتِ، (أَوْ تَتَكَلَّمْ) فِي الْقَوْلِيَّاتِ. وَقَالَ الْكُرْمَانِيُّ: قَالُوا: مَنْ عَزَمَ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فَعَلَ مَحْرَمًا وَلَوْ بَعْدَ عَشْرِينَ سَنَةً مِثْلًا عَصَى فِي الْحَالِ. وَأَجَابَ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِحَدِيثِ النَّفْسِ مَا لَمْ يَبْلُغْ إِلَى حَدِّ الْجُرْمِ وَلَمْ يَسْتَقَرَّ. أَمَا إِذَا عَقَدَ قَلْبُهُ بِهِ وَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ فَهُوَ مُؤَاخَذٌ بِذَلِكَ الْجُرْمِ، نَعَمْ لَوْ بَقِيَ ذَلِكَ الْخَاطِرُ وَلَمْ يَتْرُكْهُ يَسْتَقَرَّ لَا يُؤَاخَذُ بِهِ بَلْ يَكْتَسِبُ لَهُ بِهِ حَسَنَةً. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَنَّ الْأُمَّةَ الْمُتَقَدِّمَةَ كَانُوا يُؤَاخَذُونَ بِذَلِكَ. وَقَدْ اخْتَلَفَ أَيْضًا: هَلْ كَانَ ذَلِكَ يُؤَاخَذُ بِهِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ؟ ثُمَّ نَسَخَ وَخَفَّفَ ذَلِكَ عَنْهُمْ، أَوْ هُوَ تَخْصِيصٌ وَلَيْسَ بِنَسْخٍ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٤٨٢] فَقَدْ قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ، مِنْهُمْ: أَبُو هُرَيْرَةَ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَابْنُ عَسَاكِرَ^(١): إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٦٨٢]. انتهى

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: (ابن عمر)، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾:

الغفر هو الستر والتجاوز، ومعلوم أنه لا يغفر الذنوب إلا هو تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]، وقال جل جلاله: ﴿وَمَن يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومن أسباب مغفرة الذنوب: لزوم الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى، كما تقدم دليله. ومنها: طلب المغفرة من الله تعالى والتضرع إليه، كما هو حال النبي ﷺ، فكان الاستغفار من دعائه الكثير، فعن حذيفة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يقول بين السجدين: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، رَبِّ اغْفِرْ لِي» أخرجه أبو داود (٨٧٤)، والنسائي (١١٤٥)، وابن ماجه (٨٩٧) وغيرهم. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إِن كُنَّا لَنَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَجْلِسِ يَقُولُ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» مِائَةَ مَرَّةٍ. أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤) وغيرهم.

ومن أسباب المغفرة التقرب إلى الله بالعمل الصالح، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» متفق عليه.

وقد ذكر ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٤٥١/٢) أن سقوط العقوبة عن المسيء تكون بأحد عشر سببًا، فقال رضي الله عنه تعالى: فَإِن فَاعَلَ السَّيِّئَاتِ تَسْقُطُ عَنْهُ عُقُوبَةُ جَهَنَّمَ بِنَحْوِ عَشْرَةِ أَسْبَابٍ، عُرِفَتْ بِالِاسْتِقْرَاءِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ:

السَّبَبُ الْأَوَّلُ: التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [مَرْيَمَ: ٦٠، وَالْفُرْقَانَ: ٧٠].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [البقرة: ١٦٠].

والتَّوْبَةُ النَّصُوحُ، وَهِيَ الْخَالِصَةُ، لَا يَخْتَصُّ بِهَا ذَنْبٌ دُونَ ذَنْبٍ، لَكِنْ هَلْ تَتَوَقَّفُ صِحَّتُهَا عَلَى أَنْ تَكُونَ عَامَّةً؟ حَتَّى لَوْ تَابَ مِنْ ذَنْبٍ وَأَصْرَّ عَلَى آخَرَ لَا تُقْبَلُ؟ وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا تُقْبَلُ. وَهَلْ يَجِبُ الْإِسْلَامُ مَا قَبْلَهُ مِنَ الشَّرِكِ وَغَيْرِهِ مِنَ الذُّنُوبِ وَإِنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْهَا؟ أَمْ لَا بُدَّ مَعَ الْإِسْلَامِ مِنَ التَّوْبَةِ مِنْ غَيْرِ الشَّرِكِ؟ حَتَّى لَوْ أَسْلَمَ وَهُوَ مُصِرٌّ عَلَى الزَّنا وَشَرِبَ الْحُمُرِ مَثَلًا، هَلْ يُؤَاخَذُ بِمَا كَانَ مِنْهُ فِي كُفْرِهِ مِنَ الزَّنا وَشَرِبِ الْحُمُرِ؟ أَمْ لَا بُدَّ أَنْ يَتُوبَ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ مَعَ إِسْلَامِهِ؟ أَوْ يَتُوبُ تَوْبَةً عَامَّةً مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ؟ وَهَذَا هُوَ الْأَصْحَحُ: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ التَّوْبَةِ مَعَ الْإِسْلَامِ، وَكَوْنِ التَّوْبَةِ سَبَبًا لِعُفْرَانِ الذُّنُوبِ وَعَدَمِ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا - مِمَّا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يَكُونُ سَبَبًا لِعُفْرَانِ جَمِيعِ الذُّنُوبِ إِلَّا التَّوْبَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزُّمَرِ: ٥٣] وَهَذَا لِمَنْ تَابَ، وَهَذَا قَالَ: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ [الزُّمَرِ: ٥٣] وَقَالَ بَعْدَهَا: ﴿وَإِنِّيَبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾ [الزُّمَرِ: ٥٤].

السَّبَبُ الثَّانِي: الْإِسْتِغْفَارُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الْأَنْفَالِ: ٣٣]. لَكِنَّ الْإِسْتِغْفَارَ تَارَةً يُذَكَّرُ وَحْدَهُ، وَتَارَةً يُقْرَنُ بِالتَّوْبَةِ، فَإِنْ ذُكِرَ وَحْدَهُ دَخَلَ مَعَهُ التَّوْبَةُ، كَمَا إِذَا ذُكِرَتِ التَّوْبَةُ وَحْدَهَا شَمَلَتْ الْإِسْتِغْفَارَ. فَالتَّوْبَةُ تَتَضَمَّنُ الْإِسْتِغْفَارَ، وَالْإِسْتِغْفَارُ يَتَضَمَّنُ التَّوْبَةَ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الْآخَرِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، وَأَمَّا عِنْدَ اقْتِرَانِ إِحْدَى اللَّفْظَتَيْنِ بِالْآخَرَى، فَالْإِسْتِغْفَارُ: طَلَبُ وَقَايَةِ شَرِّ مَا مَضَى، وَالتَّوْبَةُ: الرَّجُوعُ وَطَلَبُ

وَقَايَةَ شَرِّ مَا يَخَافُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِهِ. وَنَظِيرُهُ هَذَا: الْفَقِيرُ وَالْمَسْكِينُ، إِذَا ذُكِرَ أَحَدُ اللَّفْظَيْنِ شَمِلَ الْآخَرَ، وَإِذَا ذُكِرَا مَعًا كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَعْنَى. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ [المائدة: ٨٩]. ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]. ﴿وَلِنْ تَخْفَوْهَا وَتُوْثُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. لَا خِلَافَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْإِسْمَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ لَمَّا أُفْرِدَ شَمِلَ الْمُقْلَ وَالْمُعْدَمَ، وَلَمَّا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْأَصْدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية [التوبة: ٦٠]-: كَانَ الْمُرَادُ بِأَحَدِهِمَا الْمُقْلَ، وَالْآخَرَ الْمُعْدَمَ، عَلَى خِلَافٍ فِيهِ.

وَكَذَلِكَ: الْإِثْمُ وَالْعُدْوَانُ، وَالْبِرُّ وَالتَّقْوَى، وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ. وَيَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى: الْكُفْرُ وَالتَّفَاقُ، فَإِنَّ الْكُفْرَ أَعَمُّ، فَإِذَا ذُكِرَ الْكُفْرُ شَمِلَ التَّفَاقَ، وَإِنْ ذُكِرَا مَعًا كَانَ لِكُلِّ مِنْهُمَا مَعْنَى. وَكَذَلِكَ الْإِيْمَانُ وَالْإِسْلَامُ، عَلَى مَا يَأْتِي الْكَلَامُ فِيهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الثَّلَاثُ: الْحُسَنَاتُ؛ فَإِنَّ الْحُسَنَةَ بَعَشْرٍ أَمْثَالِهَا وَالسَّيِّئَةَ بِمِثْلِهَا، فَالْوَيْلُ لِمَنْ غَلَبَتْ أَحَادُهُ أَعْشَارُهُ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]. وَقَالَ ﷺ: «وَأَتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحُسَنَةَ تَمْحُهَا».

السَّبَبُ الرَّابِعُ: الْمَصَائِبُ الدُّنْيَوِيَّةُ قَالَ ﷺ: «مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ، وَلَا غَمٍّ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا - إِلَّا كُفِّرَ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ». وَفِي «الْمُسْنَدِ»: أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]- قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَزَلَتْ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ، وَأَيْنَا لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا؟ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ يُصِيبُكَ

اللَّأْوَاءُ؟ فَذَلِكَ مَا تُجْزُونَ بِهِ». فَاَلْمَصَائِبُ نَفْسُهَا، مُكْفَّرَةٌ، وَبِالصَّبْرِ عَلَيْهَا يُثَابُ الْعَبْدُ، وَبِالتَّسَخُّطِ يَأْتُمُّ. فَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ أَمْرٌ آخَرُ غَيْرُ الْمُصِيبَةِ، فَالْمُصِيبَةُ مِنْ فِعْلِ اللَّهِ لَا مِنْ فِعْلِ الْعَبْدِ، وَهِيَ جَزَاءٌ مِنَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ عَلَى ذَنْبِهِ، وَيُكْفَّرُ ذَنْبُهُ بِهَا، وَإِنَّمَا يُثَابُ الْمَرْءُ وَيَأْتُمُّ عَلَى فِعْلِهِ، وَالصَّبْرُ وَالتَّسَخُّطُ مِنْ فِعْلِهِ، وَإِنْ كَانَ الثَّوَابُ وَالْأَجْرُ قَدْ يَحْضُلُ بِغَيْرِ عَمَلٍ مِنَ الْعَبْدِ، بَلْ هَدِيَّةٌ مِنَ الْغَيْرِ، أَوْ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]. فَنَفْسُ الْمَرْضِ جَزَاءٌ وَكَفَّارَةٌ.

وَكَثِيرًا مَا يُفْهِمُ مِنَ الْأَجْرِ غُفْرَانُ الذُّنُوبِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مَدْلُولُهُ، وَإِنَّمَا يَكُونُ مِنْ لَازِمِهِ.

السَّبَبُ الْخَامِسُ: عَذَابُ الْقَبْرِ. وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ السَّادِسُ: دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ.

السَّبَبُ السَّابِعُ: مَا يُهْدَى إِلَيْهِ بَعْدَ الْمَوْتِ مِنْ ثَوَابِ صَدَقَةٍ أَوْ قِرَاءَةٍ أَوْ حَجٍّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

السَّبَبُ الثَّامِنُ: أَهْوَالُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَشِدَائِدُهُ.

السَّبَبُ التَّاسِعُ: مَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»: «أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا عَبَرُوا الصِّرَاطَ وَوَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا هُدُّبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ».

السَّبَبُ الْعَاشِرُ: شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ عِنْدَ ذِكْرِ الشَّفَاعَةِ وَأَقْسَامِهَا.

السَّبَبُ الْحَادِي عَشَرَ: عَفُوُّ أَرْحَمِ الرَّاحِمِينَ لِلذُّنُوبِ مِنْ غَيْرِ شَفَاعَةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَمْ يَشَأِ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ لِعِظَمِ جُرْمِهِ، فَلَا بُدَّ مِنْ دُخُولِهِ إِلَى الْكَبِيرِ، لِيَخْلُصَ طَيْبُ إِيْمَانِهِ مِنْ خَبَثِ مَعَاصِيهِ، فَلَا يَبْقَى فِي النَّارِ مَنْ فِي قَلْبِهِ أَذْنَى أَذْنَى مُثْقَالِ ذَرَّةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، بَلْ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه. انتهى

في هذا دليل على أن الذنب المذكور فيما دون الشرك، وأما الشرك فلا يدخل تحت المشيئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وفي حديث عن عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وهذا عام في الشركين الأصغر والأكبر، إلا أن الأكبر يُجَلد صاحبه في النار، والأصغر يُهذب صاحبه ثم يكون مآله الجنة. وقد توسعت في بيان هذه المسألة في كتابي "فتح الوهاب شرح كتاب التوحيد لمحمد بن عبد الوهاب".

وفيها بيان لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات مشيئة الله تعالى النافذة التي لا يخرج عنها شيء مما يقع في هذا الكون: علويه وسفليه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] فيدخل في مشيئته الخير والشر، إلا أنه تعالى لا يجب الشر، وإنما شاءه لحكمة، فتفطن لذلك تسلم من مهاوي الردى وتخبط الشيطان.

وفيها بيان أن الله تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وأنه يتفضل على من شاء من عبادته، ويعذب من شاء ممن هو مستوجب

للعذاب؛ فإن الله تعالى ليس بظلام للعبيد، وقد حرم الظلم على نفسه، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ كَلَّا وَلَا سَعْيِي لَدَيْهِ ضَائِعٌ
إِنْ عُدُّبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نَعْمُوا فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾:

و(كل) من ألفاظ العموم، وفيها دليل على قوة الله تعالى وقدرته، وأنه تعالى لا يعجزه شيء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلْفٌ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهُ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧]. في البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالشَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرَهُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فلا يخرج عن قدرته ومشيتته شيء، تعالى الله وتقدس، وإذا كانت قدرته نافذة في كل شيء من ملكوت العالم العلوي والسفلي، فكيف بهذا المخلوق الضعيف، أسأل الله تعالى السلامة، فهو يصرف القلوب كيف شاء، ويهدي إذا شاء، ويضل من يشاء، ويعذب من شاء، ويرحم من شاء، وهو القائل: إني على ما أشاء قادر. ففي مسلم (١٨٧): عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التُّفَّتْ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكَ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَدْنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلَا أُسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَدْنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأُسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتَكَ مِنْهَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِينَ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَدْنِي مِنْ هَذِهِ لِأُسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا، قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ؛ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيُّ رَبِّ، أَدْخَلْنِيهَا، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِيئِي مِنْكَ؟ أَيَّرِضِيكَ أَنْ

أَعْطَيْكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟ قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟
فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ، قَالَ:
هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «مِنْ
ضَحِكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ قَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: إِنِّي لَا
أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ».

والشاهد أن الصحابة رضي الله عنهم تعاضموا قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي
أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُخَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فأرشدهم رسول الله ﷺ
إلى الطريق الصحيح والفعل المناسب، فلما ذلت به ألسنتهم بما أمرهم به
رسول الله ﷺ وألتمزوا، أمر نبيهم ﷺ وردوا أمرهم إلى خالقهم ومليكمهم
الذي لا يعجزه تغيير حالهم ومآلهم أنزل الله ﷻ الفرج بعد الشدة، وأخبر تعالى
بحالهم في الانقياد، فقال تعالى: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ
كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فهم دعوا الله ﷻ متوسلين بسمعهم وطاعتهم، وسائلين الله تعالى المغفرة،
وأن يتجاوز عما قالوه، وأن المصير إلى الله ﷻ، وهو الكريم العظيم، الغفور
الرحيم، يتجاوز عن المؤمنين والمسلمين، وهو رحيم بهم، قال تعالى: ﴿وَكَانَ
بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾:

وهذا خبر من الله تعالى عن حال رسول الله صل الله عليه وسلم في الإيمان بالله تعالى وما أنزل إليه من الوحي، وهو القرآن والسنة، فكان ﷺ مقراً منقاداً لشرع الله تعالى.

وفضائل هذا النبي الكريم كثيرة، ذكرت منها في كتابي "الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان" جملاً لا يستغني عنها المسلم؛ وذلك لما اختص الله به محمداً ﷺ من الشمائل والفضائل. فكان ﷺ خلقه القرآن ظاهراً وباطناً؛ ولذلك شرح الله له صدره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح: ١-٤]. وقد ذكرت في كتابي "فتح الحميد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد" جملاً من شمائله، قلت فيه: ومحبته ﷺ تزداد في قلوب المؤمنين بمعرفتهم لشمائله وسيرته، فقد كان ﷺ:

١- رحمةً بالمؤمنين ولهم، وسماه الله رءوفاً رحيماً، وأسمأوه ﷺ أعلاماً وأوصاف، ففي "الصحيحين": البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤) واللفظ له: عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاجِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِي الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشِرُ النَّاسَ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَحَدٌ»، وَقَدْ سَمَّاهُ اللَّهُ رءوفاً رحيماً.

٢- حريصاً على هدايتهم وإرشادهم إلى أقوم السبل، وأحسن الطرق، ففي "صحيح مسلم" (١٨٤٤): عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ كُنَّا مَعَ

رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَزَلْنَا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَنْ يُصَلِّحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ فِي جَشْرِهِ، إِذْ نَادَى مُنَادِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنْ أُمَّتُكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوْلَئِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُتَكْرَمُ بِهَا، وَتَحْيَىٰ فِتْنَةٌ فَيَرُقُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَحْيَىٰ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَحْيَىٰ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحَّحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةً يَدِهِ، وَثَمْرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنْ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرٌ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الْآخِرِ».

٣- ذا خلق عظيم، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وذلك لتخلقه بالقرآن، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٧٤٦)، وَأَحْمَدُ (٢٤٦٠١) وَاللَّفْظُ لَهُ. وَهُوَ الْقَائِلُ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٨٩٥٢)، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

٤- شجاعاً، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشْجَعَ النَّاسِ). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ (٢٨٢٠)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٠٧). وَقِيلَ لِلْبَرَاءِ: أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ حُنَيْنٍ؟ فَقَالَ الْبَرَاءُ: وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَفِرَّ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ (٢٨٦٤)، وَمُسْلِمٌ (١٧٧٦). وَعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: (إِنَّا كُنَّا إِذَا حَمِيَ الْبَأْسُ - وَيُرْوَى اشْتَدَّ الْبَأْسُ - وَاحْمَرَّتِ الْحَدُوقُ، اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ) رَوَاهُ أَحْمَدُ (١٣٤٧) بِمَعْنَاهُ. وَقَالَ: (لَقَدْ

رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ، وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا) رواه أحمد (٦٥٤).

وقال القاضي عياض في «الشفاه بتعريف حقوق المصطفى» (١/٢٣٥):
وَكَانَ ﷺ مِنْهَا بِالْمَكَانِ الَّذِي لَا يُجْهَلُ، قَدْ حَضَرَ الْمَوَاقِفَ الصَّعْبَةَ، وَفَرَ الْكُمَاهُ
وَالْأَبْطَالَ عَنْهُ غَيْرَ مَرَّةٍ، وَهُوَ ثَابِتٌ لَا يَبْرَحُ، وَمُقْبِلٌ لَا يُدْبِرُ وَلَا يَتَرَحَّزُحُ، وَمَا
شُجَاعٌ إِلَّا وَقَدْ أَحْصَيْتَ لَهُ فَرَّةً وَحَفِظْتَ عَنْهُ جَوْلَةً سِوَاهُ. اهـ

٥- كريماً، قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه: (مَا سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ
فَقَالَ: لَا). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٣١١). وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ
أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْحَيْرِ)، مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ: الْبُخَارِيُّ (١٩٠٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٣٠٨). وَعَنْ
أَنَسٍ رضي الله عنه: (كَانَ ﷺ يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَقْرَ). أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٣١٢).

٦- حَيًّا، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ
مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ
أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (٣٥٦٢)، وَمُسْلِمٌ
(٢٣٢٠).

٧- بِشَوْشًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا
الْقَلْبِ لَآنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وَقَالَ جَرِيرٌ رضي الله عنه: (مَا
حَجَبَنِي النَّبِيُّ ﷺ مِنْذُ أُسْلِمْتُ، وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ) مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ:
الْبُخَارِيُّ (٣٠٣٥)، وَمُسْلِمٌ (٢٤٧٥).

٨- غضبه لله، قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: (وَمَا أَنْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ بِهَا)، متفق عليه: البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧)، فكان لا يغضب لنفسه صلى الله عليه وسلم إلا أن تنتهك حرمة الله فيغضب الله تعالى، أخذًا بقول الله: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

٩- نظيفًا طيبًا، قَالَتْ أُمُّ سَلِيمٍ رضي الله عنها: (هَذَا عَرَفُكَ نَجَعَلُهُ فِي طِينِنَا، وَهُوَ مِنْ أَطْيَبِ الطَّيْبِ). أخرجه مسلم (٢٣٣١). وفي حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ: (... فَوَجَدْتُ لِيَدِهِ بَرْدًا أَوْ رِيحًا كَأَنَّهَا أَخْرَجَهَا مِنْ جُؤْنَةِ عَطَارٍ). أخرجه مسلم (٢٣٢٩).

١٠- جميلًا، فقد تميز بصفات جميلة جليلة خلقية وخلقية صلى الله عليه وسلم على ما ترى، وكان وجهه صلى الله عليه وسلم كالسيف بريقًا، وكالقمر استدارةً، ولم يكن بالطويل، ولا بالقصير، ولكن بين ذلك.

١١- فصيحًا، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ». أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣)، وكان إذا تكلم تكلم ثلاثًا، وإذا سلم سلم ثلاثًا.

١٢- شريفًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ، إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ بَنِي كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ». أخرجه الترمذي (٣٦٠٥)، وأصله في مسلم (٢٢٧٦)، وفي قصة أبي سفيان مع هرقل: قَالَ هِرَقْلُ: كَيْفَ نَسَبُهُ فَيْكُمْ؟ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ... فَقَالَ هِرَقْلُ: فَكَذَلِكَ الرَّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. متفق عليه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

١٣ - وفيأ، فهو القائل ﷺ: «حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ»، خرجته في تحقيق «الإيمان» لابن أبي شيبة رحمه الله، وهو القائل ﷺ: «نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ» أخرجه مسلم (١٧٨٧)، عَنْ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رضي الله عنه.

١٤ - متواضعًا، فقد خيره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بين أن يكون ملكًا رسولاً أو عبدًا رسولاً، فاختر أن يكون عبدًا رسولاً، وهو القائل: «إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، أَكُلُّ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ» أخرجه أبو يعلى عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، وله طرق عن غيرها.

١٥ - أمينًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مُطَاعٍ تَمَّ أَمِينٌ﴾ [التكوير: ٢١]، على تفسير من فسرها بأنه محمد ﷺ، وهو القائل ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي، وَأَنَا أَمِينٌ مَنْ فِي السَّمَاءِ». أخرجاه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤) عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، وكانت قريش تلقبه بالأمين قبل مبعثه ﷺ.

١٦ - عادلاً، فقد قال ﷺ: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ». متفق عليه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٤)، عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه.

١٧ - صادقًا، فقد كانت قريش تلقبه بالصادق، وهو الذي قال لهم: «هل جربتم عليّ كذبًا؟» قالوا: لا. وقال هرقل لأبي سفيان: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قَالَ أَبُو سَفْيَانَ: فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قَالَ هِرْقُلُ: فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ. الحديث. أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

١٨- وأما خوفه من ربه وحسن عبادته فهو القائل: «قَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتَقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَصْدَقُكُمْ وَأَبْرَكُكُمْ» فكان متصفاً بكل خلق نبيل، متنزهاً عن كل رذيل.

١٩- صبوراً شكوراً، فقد كان يصلي ﷺ حَتَّى تَفْطَرَ قَدَمَاهُ، وَيَقُولُ: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا». أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) عَنِ الْمُغِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وانفرد به مسلم (٢٨٢٠) عَنِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وفيه كلام، وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدَمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسُحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»، أخرجه البخاري (٣٤٧٧).

٢٠- وكاملاً متميزاً بجميع صفات الكمال الخلقية والخلقية.

ودراسة حياة رسول الله ﷺ القولية، والفعلية، والاعتقادية، والخلقية، والخلقية، هي دراسة لدين الإسلام الذي أنزله الله ﷻ على محمد الكريم ﷺ والتابعين. انتهى

بيان أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق:

وفيه بيان أن القرآن كلام الله تعالى، المنزل على محمد ﷺ، غير مخلوق، منه بدأ قولاً، وسمعه منه جبريل عليه السلام. وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والذي أنزل إليه من ربه تعالى هو القرآن، قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقال تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢].

فالقراءن صفة لله تعالى، والأدلة على هذه المسألة أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. نذكر مما في القرآن قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقوله: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣-١٤]، وقوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُورِي مِنْ شَطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ﴿وَقَمَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَائِمٍ لِتَأْخُذُواهَا ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿أَفَنظْمُعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦].

وغيرها في القرآن كثير جدًا.

والأحاديث في السنة بلغت حد التواتر في إثبات صفة الكلام لله سبحانه وتعالى، نذكر منها قطفًا، تكون نورًا للمستبصر، وحجة على الزائغ المتكبر.

منها: ما أخرجه البخاري رقم (٣٢٢٨)، ومسلم رقم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُوْنَا خَيِّتْنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى، اضْطَمَّكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُوْمُنِي عَلَى أَمْرِ قَدَرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يُخْلِقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟». فقال النبي ﷺ: «فحج آدم موسى، فحج آدم موسى».

وما أخرجه أحمد (٣/٣٩٠) رقم (١٥١٩٢) وغيره: من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان يعرض نفسه على الناس بالموقف فيقول: «هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي ﷻ»، الحديث صحيح وهو في «الصحيح المسند».

ومنها: حديث أبي أمامة رضي الله عنه، عند ابن حبان (٢٠٨٥) وغيره: أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَبِيًّا كَانَ آدَمُ؟ قال: «نَعَمْ، مُعَلِّمٌ مُكَلِّمٌ»، الحديث صحيحه شيخنا الوادعي في «صحيحه المسند».

ومنها: حديث أبي سعيد عند الشيخين البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢): أن رسول الله ﷺ قال: «يَقُولُ اللَّهُ: يَا آدَمُ فَيَقُولُ: لَبَيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، قَالَ يَقُولُ: أَخْرِجْ بَعَثَ النَّارِ قَالَ: وَمَا بَعَثَ النَّارِ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعِمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ قَالَ: فَذَلِكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلٍ حَمْلَهَا» الحديث.

ومنها: حديث أنس عندهما، البخاري (٣١٦٢)، ومسلم (١٩٣): أن رسول الله ﷺ قال في حديث الشفاعة الطويل: «فَيَقَالُ لِي: يَا مُحَمَّدُ، ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ: يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعُ» الحديث.

إنحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة

وحديث عدي بن حاتم: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ» متفق عليه البخاري (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦).

والنصوص عن السلف الصالح من الصحابة وغيرهم على إثبات كلام الله سبحانه وتعالى كثيرة جداً نذكر منها ما تيسر:

منها: ما أخرجه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٢٧٧٠): من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمرٍ يتلى...) الحديث.

وأخرج الدارمي في "رده على الجهمية" عن عمرو بن دينار (٨٨) قال: (أدرت أصحاب النبي ﷺ فمن دونهم منذ سبعين سنة يقولون: الله خالق وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود).

قال إسحاق بن راهويه بعد ذكر قول عمرو بن دينار كما عند البيهقي في "الأسماء والصفات": (وقد أدرك عمرو بن دينار أجلة أصحاب النبي ﷺ من البدرين والمهاجرين والأنصار مثل: جابر بن عبدالله، وأبي سعيد الخدري، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، وأجلة التابعين، وعلى هذا مضى صدر هذه الأمة).

وإنما خالف في هذه المسألة الجهمية والرافضة والمعتزلة والخوارج، حيث زعموا أن القرآن كلام الله مخلوق. وزعم الأشاعرة ومن إليهم قولاً آخر من أفسد الأقوال، وأن القرآن عبارة عن كلام الله تعالى أو حكاية عنه، وأن كلام الله تعالى نفساني، والعجب أنهم يستدلون على إثبات الكلام النفسي ببيت قاله الأخطل النصراني، قال ابن القيم في نونيته:

وَدَلِيلُهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلُ قَالِهِ فِيمَا يُقَالُ الْأَخْطُلُ النَّصْرَانِي

وهذا البيت هو:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

ومما يدل على أن ما في النفس لا يسمى كلاماً: ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَتَكَلَّمْ» أخرجه البخاري (٢٥٢٨)، ومسلم (١٢٧)، فلو كان ما في النفس كلاماً لكتب عليهم، ولو حدث أحدهم نفسه بطلاق امرأته وقع الطلاق قبل التلفظ، وهكذا الظهار والعتاق وغير ذلك.

وعند أهل السنة أن القرآن كلام الله تعالى، غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود. والنقوليات على هذه المسألة مدونة في غير ما كتاب، وقد ذكرتها بتفصيل قول أهل السنة فيها والرد على شبه المخالفين بتوسع في كتابي "سلامة الخلف في طريقة السلف" والله الحمد والمنة.

وقد قال اللالكائي، وهو أبو القاسم هبة الله بن الحسن الطبري رحمهما الله في كتابه "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (٣١٢/١) رقم (٣٩٣) بعد أن ذكر رحمهما الله العلماء الذين قالوا: بأن القرآن كلام الله غير مخلوق من البلخييين والنيسابوريين وأهل خراسان وأهل الحجاز واليمن والشام ومصر وغيرها من البلدان، قال: قالوا: القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، فهؤلاء خمسمائة وخمسون نفساً أو أكثر من التابعين والأئمة المرضيين سوى الصحابة الخيرين على اختلاف الأعصار ومضي السنين والأعوام. اهـ

وقد أفتى كثير من العلماء بقتل من قال: إن القرآن مخلوق، نقل ذلك أبو القاسم هبة الله اللالكائي عن جماعة منهم: مالك بن أنس إمام دار الهجرة، ومفتيها، قال: (من قال القرآن مخلوق يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه).

وأفتى به أيضاً سفيان بن عيينة، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكيع بن الجراح وغيرهم كثير.

وقد أفتى أيضاً غير واحد من أهل العلم: أن امرأته تحرم عليه؛ لأنه كافر، وامرأته مسلمة، كعبد الله بن المبارك، وأبو الوليد الطوسي.

وقد أفتى أيضاً جمع منهم: أحمد بن حنبل، وسفيان بن عيينة، وحماد بن زيد، والثوري، ويزيد بن هارون، وأبو معاوية الضريير، والربيع بن سليمان المرادي وغيرهم، أنهم لا يورثون، ولا يصلى خلفهم، ولا تعاد مرضاهم، ولا تشهد جنازتهم، وإن موالاته الإسلام انقطعت بينهم وبين المسلمين. اهـ

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ﴾:

يقول: وكذلك المؤمنون جميعاً آمنوا بما أنزل إلى رسول الله ﷺ، ممثلين أمر الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَيَّ رَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَأَيُّومِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، والأدلة في بيان حال المؤمنين في هذا الباب كثيرة في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فِإِذَا

أَسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٢﴾ [النور: ٦٢].

والإيمان في اللغة: الإقرار، وفي الشرع: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم، ومن طريقة أهل السنة في هذا الباب دخول الأعمال في مسمى الإيمان، فالصلاة والحج والزكاة والصوم والصدقة والصلة وغيره كل ذلك من الإيمان، خلافاً للمرجئة الذين يزعمون أن الأعمال غير داخلية في مسمى الإيمان وليست منه. وقد فصلت القول في معتقد السلف في الإيمان في مقدمة تحقيقي على "كتاب الإيمان" للقسام بن سلام، لمن أراد التوسع في ذلك.

دلالة الآية على أركان الإيمان الستة:

وفي هذه الآية: وجوب الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره. فهذه الآية تضمنت خمسة من أركان الإيمان، والركن السادس هو القدر، وفيها إشارة إليه كما يأتي إن شاء الله تعالى. ودليله: حديث عمر رضي الله عنه عند مسلم (٨): «وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال:

قَالَ اللَّهُ تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَالْيَوْمِ ءَالْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ءَ عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ الَّذِي يَتَقَهٗ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّبَعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ءَ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على وجوب الإيمان بالله تعالى، وما جاء عن

الله ﷻ.

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. قَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتُحِجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجَبْنَا لَهُ بِسَأَلِهِ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: أَخْبِرْنِي

عَنِ الْإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: صدقت. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ رِجَالِهَا يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُيُوتِ». قَالَ: فَهَمْزِي، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ ﷺ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مِنَ السَّائِلِ؟». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا جِرْيَلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ». أخرجه مسلم (١٨).

وجاء نحوه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أخرجه البخاري (٥١)، ومسلم (٩).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: «إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «حَجٌّ مَبْرُورٌ». أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣).

أركان الإيمان بالله ﷻ:

والإيمان بالله ﷻ يتضمن أربعة أركان، دل عليها القرآن والسنة والإجماع، فلا يتحقق الإيمان به على الوجه الصحيح إلا بذلك.

الأول: الإيمان بوجود الله ﷻ، وهذا الركن لا يعارضه أحد إلا شواذ من البشر، والأدلة عليه حسية وعقلية وفطرية وشرعية، قال أبو العتاهية:

أَيَا عَجَبًا كَيْفَ يَعْصِي الْإِلَهَ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاهِدُ
وَلِلَّهِ فِي كُلِّ تَحْرِيكَةٍ وَتَسْكِينَةٍ أَبَدًا شَاهِدُ
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

الثاني: الإيمان بربوبية الله ﷻ وهذا التوحيد فطري، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿أَفِي اللهُ شَكُّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

قال ابن كثير **رحمته الله:** فَإِنَّ غَالِبَ الْأُمَمِ كَانَتْ مُقَرَّرَةً بِالصَّانِعِ، وَلَكِنْ تَعَبُدُ مَعَهُ غَيْرَهُ مِنَ الْوَسَائِطِ الَّتِي يَطْنُونَهَا تَنْفَعُهُمْ أَوْ تُقَرِّبُهُمْ مِنَ اللهِ زُلْفَى. اهـ "تفسير القرآن العظيم" (٤/ ٤٨٢).

ولم ينكر الربوبية إلا الشواذ من البشرية، ومع ذلك بينها الله في القرآن بياناً شافياً كافياً مزيلاً لكل لبس وشك، وألزم من اعتقده وآمن به أن يقرَّ بألوهيته لأنه الخالق الرازق المالك المدبر فهو المستحق للعبادة على ما يأتي، ولا يجوز أن تصرف إلى غيره بحالٍ.

قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١].

الثالث: الإيمان بألوهية الله ﷻ، وهو إفراد الله ﷻ بالعبادة أو قل: إفراد الله ﷻ بأفعال المكلفين، وهو التوحيد الذي أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل، وشرع من أجله الجهاد، ومن أجل تحقيقه خلقت الجنة والنار، وانقسم الناس بسببه إلى مؤمنين وفجار، وهو حق الله ﷻ على العباد كما صح عن رسولنا الكريم محمد ﷺ.

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ **رحمته الله عنه** قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ ﷺ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا آخِرَةُ الرَّحْلِ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا

حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ» قُلْتُ: لَيْبِكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ». أخرجه البخاري (٦٥٠٠)، ومسلم (٣٠).

ولما كان هذا التوحيد هو الحق العظيم، فقد بينه الله ﷻ في كتابه على أكمل وأوضح بيان، فأخبر أنه خلق العباد لتحقيقه، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأمر به جميع الناس، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وأرسل من أجله الرسل، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وأنزل الله ﷻ به جميع الكتب، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكُتُبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وأعظم القسط ملازمة التوحيد.

وقد تكلمت على كثير من أنواع العبادات بشيء من التفصيل في كتابي "فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد".

الرابع: الإيمان بأسماء وصفات الله ﷻ؛ حيث أن المذهب الحق في هذا الباب وفي غيره من الأبواب هو مذهب أهل السنة والجماعة؛ فإنهم يثبتون لله ﷻ ما أثبتته لنفسه، وما أثبتته رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكيف، ولا تمثيل، بل هو سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وطريقة أهل السنة والجماعة فيه، ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله وغيره.

قال رحمته الله: **فَالْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَبِمَا وَصَفَتْهُ بِهِ رُسُلُهُ: نَفِيًّا وَإِثْبَاتًا؛ فَيُثَبِّتُ اللَّهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَيَنْفِي عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ.**

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَيْمَتِهَا إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ مَعَ إِثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ مِنَ الصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ إِحَادٍ: لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَمَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَنْ يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] الآية. فَطَرِيقَتُهُمْ تَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مَعَ نَفْيِ مُمَاثَلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ: إِثْبَاتًا بِلا تَشْبِيهِ وَتَنْزِيهَا بِلا تَعْطِيلٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٤﴾. فَفِي قَوْلِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رَدٌّ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. رَدٌّ لِلِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ. انتهى

وهذا التقسيم لا بد أن يفهم فهماً دقيقاً؛ وذلك لأن أهل البدع المخالفون لهذا الباب ينكرونه، وهو أشد عليهم من ضرب المطارق على الرءوس، والسبب في ذلك: أن أغلب الطوائف تعتقد أن توحيد الله تعالى هو إفراده بالخلق، والرزق، والملك، والتدبير فقط، ولا يبالون بباب العبادة وإفراده بها.

بل أغلب من في الأرض من المشركين والمنذدين يقرون بإفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير، وقد أخبر الله تعالى عنهم بذلك في مواطن من كتابه على ما يأتي، بما فيهم اليهود والنصارى، ولا ينكر ذلك إلا شواذ من البشرية كفرعون حين قال: (أنا ربكم الأعلى) وقال (ما علمت لكم من إله غيري) وهذا على سبيل المكابرة فقد قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وكم قصَّ الله تعالى علينا في القرآن من خبر المشركين: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وهذا الاعتراف منهم والإقرار بالربوبية لم يدخلهم في الإسلام، بل قاتل النبي ﷺ كل من أبى أن يقول: لا إله إلا الله.

وأكثر الناس من عبّاد القبور يشركون وينددون، وإذا سألتهم عن التوحيد وعن معنى (لا إله إلا الله) قالوا: لا معبود إلا الله، وربما قالوا: لا موجود إلا الله، وربما قالوا: لا خالق إلا الله. وكل هذه التعاريف لا إله إلا الله) غير صحيحة، مخالفة لدلالة الكتاب والسنة، ومعناها الحق: لا معبود بحق إلا الله، وغير الله إن عبّد فباطل؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبْدَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

فإن قال قائل: ما دليلكم على تقسيم التوحيد؟ فالجواب على ذلك أنه علم بالاستقراء لأدلة الكتاب والسنة، فأول سورة افتتح الله ﷻ بها كتابه دالة على ذلك، قال تعالى فيها: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ [الفاتحة: ٢-٥].

فهذه الآيات تضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية: وهو إفراد الله بالخلق والملك والتدبير. وتوحيد الألوهية: وهو إفراد الله بالعبادة. وتوحيد الأسماء والصفات: وهو إفراد الله ﷻ بما يجب له في أسمائه وصفاته.

فالتوحيد هو أساس الدين ولبه وأول ما يدعى إليه، وهو الركن الأول من أركان الإسلام، بل والإيمان، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ إِلَى نَحْوِ أَهْلِ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى» أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩). وجاء في بعض الروايات: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ». وفي حديث ابن عمر في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ قال: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ، عَلَى أَنْ يُوحَّدَ اللَّهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ» وهذا لفظ مسلم (١٦). وفي صحيح مسلم (٨٣٢) عن عمرو بن عبسة السلمي: كُنْتُ وَأَنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَأَتَمُّهُمْ لَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ، فَسَمِعْتُ بَرَجِلَ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبَارًا، فَقَعَدْتُ عَلَى رَاحِلَتِي، فَقَدِمْتُ عَلَيْهِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَاءً عَلَيْهِ قَوْمُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ بِمَكَّةَ، فَقُلْتُ لَهُ: مَا أَنْتَ؟ قَالَ: «أَنَا نَبِيٌّ»،

فَقُلْتُ: وَمَا نَبِيٌّ؟ قَالَ: «أُرْسَلَنِي اللهُ»، فَقُلْتُ: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أُرْسَلْتَ، قَالَ: «أُرْسَلَنِي بِصَلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ» وَاللهُ ﷻ يَقُولُ: ﴿وَالْهَكَمُ لِلَّهِ وَحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَلَأْتِكُمْ بِهِ وَكُنْتُمْ بِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾:

قلت في "كتابي سلامة الخلف في طريق السلف": ومن عقيدة أهل السنة والجماعة الإيمان بالملائكة والرسول والكتب المنزلة، والإيمان بها من أصول الإيمان التي اتفقت عليها الشرائع، قال تعالى: ﴿ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكُمُ بِهِ وَكُنْتُمْ بِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآيات، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَأَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمَلَتْكُمْ وَالْكَتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية.

فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة، بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكُمُ بِهِ وَكُنْتُمْ بِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. وقال ﷺ، في الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَأَتْكُمُ بِهِ، وَكُنْتُمْ بِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسول صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل؛ انتهى من "شرح ابن أبي العز على الطحاوية".

الإيمان بالملائكة:

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿فَالْمُدْبِرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم.

وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكّل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكّل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلائها ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفاء، والناشرات نشراء، والفارقات فرقا، والملقيات ذكرا. ومنهم: النازعات غرقا، والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، والسابقات سبعا. ومنهم: الصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا.

ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: (فرقة) و(طائفة) و(جماعة)، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وکّلوا بحمل العرش، وملائكة قد وکّلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقدیس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

ولفظ (الملك) يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿لَا يَسْقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿[الأنبياء: ٢٧-٢٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به. لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلامهم الذين عنده: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿[الأنبياء: ١٩-٢٠].

ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكّلون بالحياة، فجبريل موكّل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكّل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عبادته، ينزلون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أظت السماوات بهم، وحق لها أن تنط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راعع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم. والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفيهم بالعرش وحملهم له، وبراعتهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص.

إنحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة

قال تعالى: ﴿كُلُّ عَامِنٍ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، ﴿كِرَامًا كَانِينٍ﴾ [الانفطار: ١١]، ﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٦]، ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢١]، ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى آلِمِلَ الْأَعْلَى﴾ [الصفافات: ٨].

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم، فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان؛ انتهى من "شرح الطحاوية".

والملائكة خلقت من نور ففي مسلم (٢٩٩٦): عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

وهم مخلوقات عظيمة ففي البخاري (٣٢٣٥): عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: قُلْتُ لِعَائِشَةَ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا**: فَأَيْنَ قَوْلُهُ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم: ٨-٩]، قَالَتْ ذَاكَ جِبْرِيلُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي صُورَةِ الرَّجُلِ وَإِنَّهُ أَتَاهُ هَذِهِ الْمَرَّةَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي هِيَ صُورَتُهُ فَسَدَّ الْأَفُقَ.

وأخرج (٣٢٣٢): فقال حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ الشَّيْبَانِيُّ قَالَ سَأَلْتُ زَرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ **١** فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿[النجم: ٩-١٠]. قَالَ حَدَّثَنَا ابْنُ مَسْعُودٍ: أَنَّهُ رَأَىٰ جِبْرِيلَ لَهُ سِتْمَائَةٌ جَنَاحٌ.

وأخرج أبو يعلى (٣٣٩/٢): عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدْ التَّقَمَ الْقُرْنَ، وَحَنَىٰ جَبْهَتَهُ وَأَصْغَىٰ بِسَمْعِهِ يَنْتَظِرُ مَتَىٰ يُؤْمَرُ». قَالَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: كَيْفَ نَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «قُولُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا».

وأخرج أبو داود (٣٦/١٣): عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنْ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَىٰ عَاتِقِهِ مَسِيرَةٌ سَبْعَ مِائَةِ عَامٍ».

وقد سقت شيئاً من أوصافهم في كتاب الإيمان عجل الله تعالى أمره.

الإيمان بالأنبياء:

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمي الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص. وقد قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

إنحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة

وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا من أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه. قال تعالى:

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ فَإِنَّ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رُسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ، فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلا.

[ومن كفر برسول واحد فقد كفر بهم جميعا لما تقدم من قول الله تعالى:

﴿لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقد قال الله تعالى في شأن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنما كان الرسول إليهم نوح عليه السلام.]

الإيمان بالكتب:

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمي الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتبها أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب.

فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١-٢]، إلى قوله: ﴿وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ﴾ [آل عمران: ٤]. ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده. وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو. وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١) ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٦]، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنزِلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، انتهى من "شرح الطحاوية" لابن أبي العز (٢٨٦) وما بعده.

انتهى النقل من كتابي "سلامة الخلف في طريقة السلف".

الإيمان باليوم الآخر والقدر:

وقد دلت الآيات على الإيمان باليوم الآخر، والقدر وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فإن الحساب يكون في ذلك اليوم، أسأل الله تعالى السلامة. قال ابن عثيمين في "عقيدة أهل السنة والجماعة" ص(٢٣): ونؤمن باليوم الآخر، وهو يوم القيامة الذي لا يوم بعده، حين يبعث الناس أحياء للبقاء، إما في دار النعيم، وإما في دار العذاب الأليم.

فنؤمن بالبعث، وهو: إحياء الله تعالى الموتى، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة بلا نعال، عراة بلا ثياب، غرلاً بلا ختان: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

ونؤمن بصحائف الأعمال تعطى باليمين أو من وراء الظهر بالشمال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ ٧ ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ ٨ ﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ ٩ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ ١٠ ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ ١١ ﴿وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧-١٢]، ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْرِهٖ فِي عُنُقِهِ ۗ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ

الْقِيَمَةِ كَتَبًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كُنْتَبِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿الإسراء: ١٣-١٤﴾.

ونؤمن بالموازين توضع يوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٤]، ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ونؤمن بالشفاعة العظمى لرسول الله ﷺ خاصة، يشفع عند الله تعالى بإذنه ليقضي بين عباده حين يصيبهم من الهم والكرب ما لا يطيقون، فيذهبون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى، حتى تنتهي إلى رسول الله ﷺ.

ونؤمن بالشفاعة فيمن دخل النار من المؤمنين ليخرجوا منها، وهي للنبي ﷺ وغيره من النبيين والمؤمنين والملائكة. وبأن الله تعالى يخرج من النار أقواماً من المؤمنين بغير شفاعة، بل بفضلته ورحمته.

ونؤمن بحوض رسول الله ﷺ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وأطيب من رائحة المسك، طوله شهر، وعرضه شهر، وأنيته كنجوم السماء حسناً وكثرة، يرده المؤمنون من أمته، من شرب منه لم يظمأ بعد ذلك.

ونؤمن بالصراط المنصوب على جهنم، يمر الناس عليه على قدر أعمالهم، فيمر أولهم كالبرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، ثم كشد الرحال، والنبي ﷺ قائم على الصراط يقول: ﴿يَا رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ﴾ حتى تعجز أعمال العباد، فيأتي من

يزحف. وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة، تأخذ من أمرت به،
فمخدوش ناج، ومكردس في النار.

ونؤمن بكل ما جاء في الكتاب والسنة من أخبار ذلك اليوم وأهواله،
أعاننا الله عليها.

ونؤمن بشفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة أن يدخلوها، وهي للنبي ﷺ
خاصة.

ونؤمن بالجنة والنار، فالجنة دار النعيم التي أعدها الله تعالى للمؤمنين
المتقين، فيها من النعيم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب
بشر: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:
١٧].

والنار دار العذاب التي أعدها الله تعالى للكافرين الظالمين، فيها من
العذاب والنكال ما لا يخطر على البال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ
سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ
مُرْتَقًى﴾ [الكهف: ٢٩].

وهما موجودتان الآن، ولن تفنيا أبد الآبدين: ﴿وَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ
رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ٦٤ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا
يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ٦٥ ﴿يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ
وَأَطَعْنَا الرَّسُولًا﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٦]. انتهى

ويدخل نعيم وعذاب القبر في الإيمان باليوم الآخر، فقد أخرج الترمذي (٢٣٠٨): عن هانئ مولى عثمان قال: كان عثمان إذا وقف على قبر بكى حتى يبيل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟! قال: إن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ، فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ». قال: وقال رسول الله ﷺ: «مَا رَأَيْتُ مَنْظَرًا قَطُّ إِلَّا وَالْقَبْرُ أَفْظَعُ مِنْهُ».

الإيمان بالقدر:

ودلت الآية على إثبات علم الله تعالى بعباده، وأنه مطلع عليهم، وأنهم سائرون إلى ما أراد وقدر. وقلت في كتابي «سلامة الخلف»:

ومن عقيدة أهل السنة الإيمان بالقضاء والقدر من أركان الإيمان، والمراد بالقدر هو تعلق علم الله بالكائنات وإرادته لها أولاً قبل وجودها.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمُنُّ إِلَّا الَّذِينَ عِنْدَنَا بِحُزْنٍ وَإِنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَلَقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿٣٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٣١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

وفي حديث عمر رضي الله عنه عن مسلم (٨) في أركان الإيمان وفيه: «وَتُؤْمَنُ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، وفي حديث أبي هريرة عند مسلم: «كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ»، والقدر سر الله ﷻ لم يُطلع عليه نبيا مرسلًا ولا ملكًا مقربًا.

إنحاف البررة بتفسير خواتيم سورة البقرة

فتقدير الله للأشياء على وجهين، أحدهما: بإعطاء القدرة، والثاني: بأن يجعلها على مقدار مخصوص ووجه حسبها اقتضت الحكمة؛ قاله الراغب.

قال القرطبي في "المفهم" (١/١٤٥): والإيمانُ بالقدرة: هو التصديقُ بما تقدّم ذكره، وحاصله: هو ما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقولُهُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقوله: ﴿وَمَا نَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: ٢٩]، وإجماعُ السلف والخلف على صدق قول القائل: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. اهـ

قال النووي رحمته الله في شرح كتاب القدر من "صحيح مسلم": سبيل معرفة هذا الباب التوقيف من الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول، فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة، ولم يبلغ شفاء النفس، ولا يصل إلى ما يطمئن به القلب؛ لأن القدر سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستار، واختص الله به، وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم؛ لما علمه من الحكمة. وواجبنا أن نقف حيث حد لنا، ولا نتجاوزه، وقد طوى الله تعالى علم القدر على العالم، فلم يعلمه نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة، ولا ينكشف قبل دخولها. والله أعلم. انتهى

وذكرت هذه إشاراتٍ لأهمية البيان لعقيدة أهل السنة والجماعة.

ركن الإحسان:

تقدم حديث عمر رضي الله عنه وفيه: قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». وقد دلت الآية على هذا الركن الذي

يتضمن كمال المراقبة لله تعالى في جميع الأحوال والأقوال، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يَحَاسِبَكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فالله مطلع على العبد، عالم بحاله، فحري به أن يكون مراقباً لله تعالى فيما يفعل ويذر، قال ابن رجب رحمته الله في «جامع العلوم والحكم» (١/١٢٩): فَأَشَارَتْ إِلَى الْمَقَامَيْنِ.. أَحَدُهُمَا: مَقَامُ الْإِخْلَاصِ، وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ عَلَى اسْتِحْضَارِ مُشَاهَدَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ، وَاطَّلَاعِهِ عَلَيْهِ وَفُرْبِهِ مِنْهُ، فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْعَبْدُ هَذَا فِي عَمَلِهِ وَعَمِلَ عَلَيْهِ، فَهُوَ مُخْلِصٌ لِلَّهِ، لِأَنَّ اسْتِحْضَارَهُ ذَلِكَ فِي عَمَلِهِ يَمْنَعُهُ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَإِرَادَتِهِ بِالْعَمَلِ. وَالثَّانِي: مَقَامُ الْمُشَاهَدَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْمَلَ الْعَبْدُ عَلَى مُقْتَضَى مُشَاهَدَتِهِ لِلَّهِ بِقَلْبِهِ، وَهُوَ أَنْ يَتَنَوَّرَ الْقَلْبُ بِالْإِيْمَانِ، وَتَنْفَذَ الْبَصِيرَةَ فِي الْعِرْفَانِ، حَتَّى يَصِيرَ الْغَيْبُ كَالْعِيَانِ. وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ مَقَامِ الْإِحْسَانِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيَتَفَاوَتْ أَهْلُ هَذَا الْمَقَامِ فِيهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ نُفُوزِ الْبَصَائِرِ... وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وَقَوْلِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ جَبَلٍ أَلْوَيْدٍ﴾ [ق: ١٦]. وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٨]. انتهى

أركان الإسلام:

دل عليها ما تقدم من حديث عمر رضي الله عنه. وفي «الصحيحين» من حديث ابن عمر رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» متفق عليه.

ودلالة الآية على هذه الأركان مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَأَلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح، وأعظمها الأركان الخمسة التي اتفقت على فرضها الشرائع.

قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾:

وهذا شأن المؤمن أنه يسمع ويستجيب، بخلاف ما عليه اليهود والنصارى ومن تشبه بهم، قال تعالى: ﴿حُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعَيْنَا لِيَا بَالِسِنَّهُمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

وطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ سبب لكل فوز في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]. وحذر تعالى من عدم طاعته، فقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ

ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ [محمد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]. في كثير من ذلك.

فالغاية التي خلقنا من أجلها هي عبادته وطاعته، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨]. فأعظم الطاعة التوحيد، كما أن أعظم ذنب هو الشرك بالله تعالى، وقد ذكرت بحمد الله فضل التوحيد وخطر الشرك في كتابي "فتح المجيد ببيان هداية القرآن إلى التوحيد والتحذير من الشرك والتنديد".

وفي مسلم (٨٧٠): عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا خَطَبَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعْصِيهِمَا، فَقَدْ غَوَى، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِرِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ».

وقال تعالى محذراً من معصيته: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

ويدخل في طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله: السمع والطاعة لولاة أمر المسلمين في المعروف، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ؕ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِيعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِرِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي» أخرجه مسلم (١٨٣٥). وفي حديث علي رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم سَرِيَّةً، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يُطِيعُوهُ، فَغَضِبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ: أَلَيْسَ قَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَنْ تُطِيعُونِي؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: قَدْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ لَمَّا جَمَعْتُمْ حَطَبًا، وَأَوْقَدْتُمْ نَارًا، ثُمَّ دَخَلْتُمْ فِيهَا فَجَمَعُوا حَطَبًا، فَأَوْقَدُوا نَارًا، فَلَمَّا هَمُّوا بِالْدُخُولِ، فَقَامَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا تَبِعْنَا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فِرَارًا مِنَ النَّارِ أَفَدَخَلُهَا؟ فَيَنِمَّا هُمْ كَذَلِكَ، إِذْ حَمَدَتِ النَّارُ، وَسَكَنَ غَضَبُهُ، فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالَ: «لَوْ دَخَلُوهَا مَا خَرَجُوا مِنْهَا أَبَدًا، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ». متفق عليه: البخاري (٧١٤٥)، ومسلم (١٨٤٠).

قوله تعالى: ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾:

قال الراغب في «المفردات»: «والعُفْرَانُ والمَغْفِرَةُ من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب. انتهى»

والدعاء بالمغفرة وسؤال الستر من المتعينات على العباد؛ لكثرة ما يتعاطونه من الذنوب، أسأل الله تعالى السلامة. وفي صحيح مسلم (٢٥٧٧):
عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى: «يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَعْفِرْ لَكُمْ».
وفي مسلم (٢٧٤٨): عَنْ أَبِي أَيُّوبَ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ: كُنْتُ كَتَمْتُ عَنْكُمْ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «لَوْ لَا أَنْتُمْ تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهُ خَلْقًا يُذْنِبُونَ يَغْفِرُ لَهُمْ».

وفيه (٢٧٤٩): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ».

وقد أمر الله تعالى بالاستغفار، فقال الله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَسَيِّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهُ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦]، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمِنَّكُمْ مَنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠].

وفي الحديث الصحيح عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «طُوبَىٰ لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا» أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨) وغيرهما.

وكان النبي ﷺ ملازمًا للاستغفار، فعَنِ الْأَعْرَابِيِّ رضي الله عنه، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، فِي الْيَوْمِ مِائَةً مَرَّةً» أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

وكان إذا انتهى من الصلاة استغفر، ففي مسلم (٥٩١): عَنْ ثُوْبَانَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَنْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا، وَقَالَ: «اللَّهُمَّ

أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». قَالَ الْوَلِيدُ: فَقُلْتُ لِلْأَوْزَاعِيِّ: كَيْفَ الْأَسْتِغْفَارُ؟ قَالَ: تَقُولُ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ.

وقبل موته أمره الله تعالى بالاستغفار، ففي مسلم (٤٨٤): عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» قَالَتْ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ» فَقَالَ: «خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، فَإِذَا رَأَيْتَهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلٍ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، فَقَدْ رَأَيْتُهَا»: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]، فَتُح مَكَّةَ، ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ﴿٢﴾ فَسِيحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَأَسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: ٢-٣].

والشاهد: أن سؤال الله تعالى مغفرة الذنوب من أسباب تكفيرها. وعند الترمذي (٣٥٤٠): أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لِأَتَيْتَكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». وهو حديث حسن بطرقه وشواهده.

إلى غير ذلك مما يضيّق المجال بذكره والله المستعان.

قوله تعالى: ﴿وَالَيْكَ الْمَصِيرُ﴾:

تقدم بيان ما يتعلق بذلك، وأن العباد صائرون إلى الله تعالى يوم القيامة، ومجازيهم على أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَرَكَنَّ فَمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨] وفي هذا من الرجاء والتهديد ما يعلمه أولو الألباب، فإذا كان مصير المؤمن إلى الله، ففي ذلك البشارة العظيمة برحمة الله تعالى له وعفوه عنه، بينما في ذلك للكافر البشارة بالغضب والسخط، أسأل الله السلامة والعافية.

ويدل على ذلك ما أخرجه أبو بكر بن أبي شيبة في "المصنف" (٣/ ٣٨٠) رقم (١٢٠٥٩): عَنِ الْبَرَاءِ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرُ، وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُتُ بِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، أَوْ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهُهُمُ الشَّمْسُ، حَتَّى يَجْلِسُونَ مِنْهُ، مَدَّ الْبَصَرَ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ فَيَقْعُدُ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: أَيَّتْهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرَجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ، فَتَخْرُجُ تَسِيلٌ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ، فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَذَلِكَ الْحَنُوطِ، فَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مِسْكِ، وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَضَعُدُونَ بِهَا فَلَا

يَمُرُونَ بِهَا عَلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُونَ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتَحُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيَسْتَقْبِلُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، قَالَ: فَيَقُولُ اللَّهُ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ: مَا عَمَلُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، وَآمَنْتُ بِهِ، وَصَدَّقْتُ بِهِ، فَيَنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَالْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ فَيَأْتِيهِ مِنْ طَيْبِهَا، وَرَوْحِهَا، وَيُفَسِّحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرُ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ، أَقِمِ السَّاعَةَ، حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي.

وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، حَتَّى يَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُولُ: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أَخْرِجِي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَغَضَبِهِ قَالَ: فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، قَالَ: فَتَخْرُجُ فَيَنْقَطِعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ كَمَا تُنَزَعُ السَّفُودَ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُوهَا، فَإِذَا أَخَذُوهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ، طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، فَيَخْرُجُ

مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ جِيفَةٍ، وَجَدْتُ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَكٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْحَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِأَفْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمِّي بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهِيَ بِهَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتِحُونَ، فَلَا يَفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿لَا نُنْفِخُ لَهُمْ آتُونَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] قَالَ: «فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي سَجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتَهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى، قَالَ: فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرَحًا»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَظَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ الْمَلَكُانِ فَيُجَلِّسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهَا لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا دِينُكَ؟، فَيَقُولُ: هَاهَا لَا أَدْرِي قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَفْرَسُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَاللِّسُوءُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، قَالَ: فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا، وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ عَلَيْهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، وَقَبِيحُ الثِّيَابِ، مُتْنِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبَشْرُ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْحَبِيثُ فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ، رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ».

قال الوادعي رحمته الله: في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» هذا

حديث حسن.

وفي البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨): عَنْ صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزِ الْمَازِنِيِّ قَالَ: بَيْنَمَا أَنَا أُمْشِي مَعَ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَخَذَ بِيَدِهِ، إِذْ عَرَضَ رَجُلٌ، فَقَالَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟» فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيُّ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُمَهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَعْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ، فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨].

وفي صحيح مسلم (١٩٠): عَنْ أَبِي دَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتَعْرِضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَاهُنَا» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

وفي الحديث المتفق عليه: البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (١٠١٦): عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيِّكَلَّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قَدَامَهُ، ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

وفي البخاري (٤٧٤٠): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللَّهِ حُفَاةَ عُرَاهُ غُرْلًا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، أَلَا إِنَّهُ يُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشَّمَالِ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: لَا تَدْرِي مَا أَحَدْتُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿شَهِدٌ﴾ [المائدة: ١١٧] فَيُقَالُ: إِنَّ هَؤُلَاءَ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتُهُمْ».

فعلى المسلم أن يكون مشفقاً من مثل هذا المصير، والله المستعان. فإن المؤمن مشفق من الله تعالى، وخائف منه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾:

هذا من رحمة الله تعالى بعباده، وأنه لا يكلف العبد إلا ما استطاع، وهذا كقول الله ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا ءَاتَهَا﴾ [الطلاق: ٧]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وفي «الصحيحين» البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧): عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسْؤَالِهِمْ

وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَىٰ أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وقول الله ﷻ: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] محمولة على ما يستطيعه الإنسان، فهذه الآية عائدة إلى قوله ﷻ: ﴿فَأَتُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذه الآية وما في بابها دالة على رحمة الله ﷻ بالعباد، وأنه لا يكلفهم ما يعجزهم، بل هو سبحانه وتعالى يسر القرآن والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ومن زعم أن الإسلام دين شاق فهذا لجهله بالإسلام، فهو دين يسر، كما قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْكُمْ إِزْهِيمًا هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال عز في علاه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] إلى غير ذلك من الآيات.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا، وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ» أخرج البخاري (٣٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي «سنن الترمذي» (٧١١ / ٥): عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ»، فَقَرَأَ عَلَيْهِ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البينة: ١] وَقَرَأَ فِيهَا: «إِنَّ ذَاتَ الدِّينِ عِنْدَ اللَّهِ الْخَنِيفَةُ الْمُسْلِمَةُ لَا الْيَهُودِيَّةُ

وَلَا النَّصْرَانِيَّةُ وَلَا الْمَجُوسِيَّةُ، مَنْ يَعْمَلْ خَيْرًا فَلَنْ يُكْفَرَهُ» وَقَرَأَ عَلَيْهِ: «لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ كَانَ لَهُ ثَانِيًا، لَابْتَغَى إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ» وهذا مما يدل على فضيلة الإسلام على غيره من الأديان. وقد توسعت - بحمد الله - في بيان فضله في كتابي «الزجر والبيان لدعاة الحوار والتقارب بين الأديان».

وقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾:

قوله: (ما كسبت) أي: من خير، وقوله: (وعليها ما اكتسبت) أي: من شر. قال السعدي رحمته الله في «تفسيره» ص (١٢٠): وفي الإتيان بـ(كسب) في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل بمجرد نية القلب، وأتى بـ(اكتسب) في عمل الشر؛ للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه. انتهى

واعلم أن كل نفس تؤاخذ بما كسبت وما عملت من خير أو شر، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، بل إن الله تعالى يضاعف الحسنات، كما قال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فإن الله سبحانه لا يظلم أحداً كما قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿ آل عمران: ١٨١-١٨٢﴾، وقال تعالى: ﴿بُصِّرُوهُمْ يَوْمَ لَوِيقَتِي مِنَ

عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَيْنِهِ ﴿١١﴾ وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصَّلَتْهُ الَّتِي تُتَوَّيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ ﴿المعارج: ١١-١٥﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ﴾ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَحْبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿عبس: ٣٣-٣٧﴾.

وكل أحد من المكلفين يؤاخذ بعمله لا غير، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿النجم: ٣٩-٤١﴾، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿الأنعام: ١٦٤﴾.

وفي حديث أبي رَمَثَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «يَدُ الْمُعْطِي الْعُلْيَا، أُمَّكَ وَأَبَاكَ، وَأَخْتِكَ وَأَخَاكَ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ». وَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ لَا بَنُو يَرْبُوعٍ قَتَلَهُ فُلَانٍ؟ قَالَ: «أَلَا لَا تَجْنِي نَفْسٌ عَلَىٰ أُخْرَىٰ» أخرجَه أحمد (٧١٠٥).

وأما قول الله تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أُنْفُسَهُمْ وَأَثْقَالَ مَعِ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَ لَنَافِعٍ يَوْمَ أَلْفِكْمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿العنكبوت: ١٣﴾ فإن هذا من سعيهم؛ حيث دعوا إلى الباطل، ومع ذلك لا ينقص من عمل العامل شيء، ففي مسلم (٢٦٧٤): عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَىٰ هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا».

وأما ما أخرجَه مسلم (٢٧٦٧): عَنِ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، دَفَعَ اللَّهُ عز وجل إِلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ، يَهُودِيًّا، أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ: هَذَا فِكَأُكُكَ مِنَ النَّارِ»، فلا يدل على أن أحدًا يعذب بغير

جرمه، وتوجيهه: ما قاله النووي رحمه الله تعالى في "شرح مسلم" (١٧ / ٨٥) قال: قَوْلُهُ ﷻ (إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا فَيَقُولُ هَذَا فَكَاكُكَ مِنَ النَّارِ) وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا يَمُوتُ رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا أَدْخَلَ اللَّهُ مَكَانَهُ النَّارَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا وَفِي رِوَايَةٍ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الْجِبَالِ فَيَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُمْ وَيَضَعُهَا عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى) الْفَكَكُ بِفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِهَا، الْفَتْحُ أَفْصَحُ وَأَشْهَرُ، وَهُوَ الْخَلَاصُ وَالْفِدَاءُ، وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ: مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «لِكُلِّ أَحَدٍ مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمَنْزِلٌ فِي النَّارِ» فَالْمُؤْمِنُ إِذَا دَخَلَ الْجَنَّةَ خَلَفَهُ الْكَافِرُ فِي النَّارِ لِاسْتِحْقَاقِهِ ذَلِكَ بِكُفْرِهِ، وَمَعْنَى (فَكَكُكَ مِنَ النَّارِ): أَنَّكَ كُنْتَ مُعَرَّضًا لِدُخُولِ النَّارِ، وَهَذَا فَكَكُكَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّرَ لَهَا عَدَدًا يَمَلُؤُهَا، فَإِذَا دَخَلَهَا الْكُفَّارُ بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ صَارُوا فِي مَعْنَى الْفَكَكِ لِلْمُسْلِمِينَ. وَأَمَّا رِوَايَةُ: (يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ) فَمَعْنَاهُ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغْفِرُ تِلْكَ الذُّنُوبَ لِلْمُسْلِمِينَ وَيُسْقِطُهَا عَنْهُمْ، وَيَضَعُ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى مِثْلَهَا بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، فَيَدْخِلُهُمُ النَّارَ بِأَعْمَالِهِمْ لَا بِذُنُوبِ الْمُسْلِمِينَ. وَلَا بَدَّ مِنْ هَذَا التَّأْوِيلِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَنْزِرُ وَرَزْرَ أُخْرَى﴾. وَقَوْلُهُ: (وَيَضَعُهَا) مَجَازٌ، وَالْمُرَادُ: يَضَعُ عَلَيْهِمْ مِثْلَهَا بِذُنُوبِهِمْ، كَمَا ذَكَرْنَا، لَكِنْ لَمَّا أَسْقَطَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنِ الْمُسْلِمِينَ سَيِّئَاتِهِمْ، وَأَبْقَى عَلَى الْكُفَّارِ سَيِّئَاتِهِمْ، صَارُوا فِي مَعْنَى مَنْ حَمَلَ إِثْمَ الْفَرِيقَيْنِ؛ لِكُونِهِمْ حَمَلُوا الْإِثْمَ الْبَاقِي، وَهُوَ إِثْمُهُمْ. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ أَنَّمَا كَانَ لِلْكَفَّارِ سَبَبٌ فِيهَا بِأَنَّ سَنُوهَا فَتَسْقُطُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ بَعْفُو اللَّهِ تَعَالَى، وَيُوضَعُ عَلَى الْكُفَّارِ مِثْلَهَا؛ لِكُونِهِمْ سَنُوهَا، وَمَنْ سَنَّ سَنَةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ مِثْلُ وَرْزِرٍ كُلِّ مَنْ يَعْمَلُ بِهَا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

انتهى

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾:

فيه ما عليه المؤمنون من سؤال ربهم سبحانه وتعالى: أن لا يؤاخذهم أو يعاقبهم على ما فعلوه نسياناً أو خطأً. وفي «الصَّحِيحَيْنِ» البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦): عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ، فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ». وجاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند ابن ماجه وغيره: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ، وَمَا اسْتَكْرَهُوا عَلَيْهِ» مع أن الحديث ضعيف، قال ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٣٦١ / ٢): وَقَدْ أَنْكَرَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ جِدًّا، وَقَالَ: لَيْسَ يُرْوَى فِيهِ إِلَّا عَنِ الْحَسَنِ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مُرْسَلًا. وَقِيلَ لِأَحْمَدَ: إِنَّ الْوَلِيدَ بْنَ مُسْلِمٍ رَوَى عَنْ مَالِكٍ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ مِثْلَهُ، فَأَنْكَرَهُ أَيْضًا. انتهى لكن عمومات الأدلة تدل على ثبوت معنى هذا الحديث.

فالمخطئ والناسي غير مأزور، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أَوْ شَرِبَ، فَلَيْتَمَّ صَوْمُهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ» أخرجه مسلم (١١٥٥).

وعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيْسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، فَأَيْمَةٌ عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخَطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

فلم يعاقبه الله صلى الله عليه وسلم على هذا الخطأ، مع أنه لو قال إنسان متعمداً هذا القول

لكفر.

وكذلك الناسي لا يؤاخذ، لو ترك الصلاة ناسياً لا يؤاخذ، أو فعل فعلاً ناسياً من المحرمات لا يؤاخذ، إنما يؤاخذ على العمد والقصد، وهذا من رحمة الله ﷻ. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ» ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] متفق عليه: البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

وهكذا المكروه على الكفر وغيره لا يؤاخذ، قال تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، قال ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (٢/ ٣٧٠): فِي حُكْمِ الْمُكْرَهِ، وَهُوَ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا: مَنْ لَا اخْتِيَارَ لَهُ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، كَمَنْ حُمِلَ كَرْهًا وَأُدْخِلَ إِلَى مَكَانٍ حَلَفَ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ مِنْ دُخُولِهِ، أَوْ حُمِلَ كَرْهًا، وَضُرِبَ بِهِ غَيْرُهُ حَتَّى مَاتَ ذَلِكَ الْغَيْرُ، وَلَا قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، أَوْ أُضْجِعَتْ، ثُمَّ زُنِيَ بِهَا مِنْ غَيْرِ قُدْرَةٍ لَهَا عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، فَهَذَا لَا إِثْمَ عَلَيْهِ بِالْإِتِّفَاقِ، وَلَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ حِنْثٌ فِي يَمِينِهِ عِنْدَ جُمْهُورِ الْعُلَمَاءِ. وَقَدْ حُكِيَ عَنِ بَعْضِ السَّلَفِ - كَالنَّخَعِيِّ - فِيهِ خِلَافٌ، وَوَقَعَ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ بَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ وَأَحْمَدَ، وَالصَّحِيحُ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لَا يَحْنُثُ بِحَالٍ. وَرَوِيَ عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ فِي امْرَأَةٍ حَلَفَتْ عَلَى شَيْءٍ، وَأَحْنَثَهَا زَوْجُهَا كَرْهًا أَنْ كَفَّارَتَهَا عَلَيْهِ، وَعَنْ أَحْمَدَ رَوَايَةٌ كَذَلِكَ، فِيمَا إِذَا وَطِئَ امْرَأَتَهُ مُكْرَهَةً فِي صِيَامِهَا أَوْ إِحْرَامِهَا أَنْ كَفَّارَتَهَا عَلَيْهِ. وَالْمَشْهُورُ عَنْهُ أَنَّهُ يَفْسُدُ بِذَلِكَ صَوْمُهَا وَحُجَّتُهَا. وَالنَّوْعُ الثَّانِي: مَنْ أُكْرِهَ بِضَرْبٍ أَوْ غَيْرِهِ حَتَّى فَعَلَ، فَهَذَا الْفِعْلُ يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ، فَإِنَّهُ يُمَكِّنُهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ فَهُوَ مُخْتَارٌ لِلْفِعْلِ، لَكِنْ لَيْسَ غَرَضُهُ نَفْسَ الْفِعْلِ، بَلْ دَفَعَ الضَّرَرَ عَنْهُ، فَهُوَ مُخْتَارٌ مِنْ وَجْهِهِ، غَيْرُ مُخْتَارٍ مِنْ

وَجِهٍ، وَهَذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ: هَلْ هُوَ مُكَلَّفٌ أَمْ لَا؟ وَاتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أُكْرِهَ عَلَى قَتْلِ مَعْصُومٍ لَمْ يُبَحِّحْ لَهُ أَنْ يَقْتُلَهُ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَقْتُلُهُ بِاخْتِيَارِهِ افْتِدَاءً لِنَفْسِهِ مِنَ الْقَتْلِ، هَذَا إِجْمَاعٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُعْتَدِّ بِهِمْ، وَكَانَ فِي زَمَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ يُخَالَفُ فِيهِ مَنْ لَا يَعْتَدُّ بِهِ، فَإِذَا قَتَلَهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ، فَالْجُمُهورُ عَلَى أَنَّهَا يَشْتَرِكَانِ فِي وُجُوبِ الْقَوْدِ: الْمُكْرَهُ وَالْمُكْرَهُ؟ لِاشْتِرَاكِيهِمَا فِي الْقَتْلِ، وَهُوَ قَوْلُ مَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ فِي الْمَشْهُورِ وَأَحْمَدَ، وَقِيلَ: يَجِبُ عَلَى الْمُكْرِهِ وَحَدُّهُ، لِأَنَّ الْمُكْرَةَ صَارَ كَالْآلَةِ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَحَدِ قَوْلِي الشَّافِعِيِّ، وَرُوِيَ عَنِ زُفَرٍ كَالْأَوَّلِ، وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُكْرِهِ لِمُبَاشَرَتِهِ، وَلَيْسَ هُوَ كَالْآلَةِ، لِأَنَّهُ أَنْتُمْ بِالِاتِّفَاقِ، وَقَالَ أَبُو يُوْسُفَ: لَا قَوْدَ عَلَى وَاحِدٍ مِنْهُمَا، وَخَرَجَهُ بَعْضُ أَصْحَابِنَا وَجْهًا لَنَا مِنَ الرَّوَايَةِ لَا تُوجِبُ فِيهَا قَتْلَ الْجَمَاعَةِ بِالْوَاحِدِ، وَأَوْلَى. وَلَوْ أُكْرِهَ بِالضَّرْبِ وَنَحْوِهِ عَلَى إِتْلَافِ مَالِ الْعَيْرِ الْمَعْصُومِ، فَهَلْ يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ؟ فِيهِ وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا. فَإِنْ قُلْنَا: يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ، فَضَمِنَهُ الْمَالِكُ، رَجَعَ بِمَا ضَمِنَهُ عَلَى الْمُكْرِهِ، وَإِنْ قُلْنَا: لَا يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ، فَالضَّمَانُ عَلَيْهِمَا مَعًا كَالْقَوْدِ. وَقِيلَ: عَلَى الْمُبَاشِرِ الْمُكْرَهُ وَحَدُّهُ وَهُوَ ضَعِيفٌ.

وَلَوْ أُكْرِهَ عَلَى شُرْبِ الْحَمْرِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْأَفْعَالِ الْمُحَرَّمَةِ، فَفِي إِبَاحَتِهِ قَوْلَانِ: أَحَدُهُمَا: يُبَاحُ لَهُ ذَلِكَ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَنِيَتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِنَبْتِغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِنَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]، وَهَذِهِ نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنِ سَلُولٍ، كَانَتْ لَهُ أَمْتَانِ يُكْرِهُهُمَا عَلَى الزَّنا، وَهُمَا يَأْبِيَانِ ذَلِكَ، وَهَذَا قَوْلُ الْجُمُهورِ كَالشَّافِعِيِّ، وَأَبِي حَنِيفَةَ، وَهُوَ الْمَشْهُورُ عَنْ أَحْمَدَ، وَرُوِيَ نَحْوُهُ عَنِ الْحَسَنِ وَمَكْحُولٍ، وَمَسْرُوقٍ وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ. انْتَهَى

وتسمى هذه بموانع التكفير، ويضاف إليها الجهل فإن الجاهل لا يؤاخذ إلا بعد العلم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وفي "مسند أحمد" (٦٤/٢٩): عَنْ أَبِي بَشِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبَادَ بْنَ شَرْحِبِيلَ - وَكَانَ مِنَّا مِنْ بَنِي عُبَيْرٍ -، قَالَ: أَصَابَتْنَا سَنَةٌ، فَاتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ حَائِطًا مِنْ حِيطَانِهَا، فَأَخَذْتُ سُنْبُلًا فَفَرَكْتُهُ، وَأَكَلْتُ مِنْهُ وَحَمَلْتُ فِي ثَوْبِي، فَجَاءَ صَاحِبُ الْحَائِطِ، فَضَرَبَنِي وَأَخَذَ ثَوْبِي، فَاتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «مَا عَلَّمْتَهُ إِذْ كَانَ جَاهِلًا، وَلَا أَطَعْتَهُ إِذْ كَانَ سَاعِبًا، أَوْ جَائِعًا». فَرَدَّ عَلَيَّ الثَّوْبَ، وَأَمَرَ لِي بِنِصْفِ وَسْقٍ أَوْ وَسْقٍ.

وقد تكلم الشنقيطي رحمته الله تعالى على مسألة العذر بالجهل بكلام نفيس عند قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ^(١)، فقال رحمته الله: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ ظَاهِرٌ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. حَتَّى يَبْعَثَ إِلَيْهِ رَسُولًا يُنذِرُهُ وَيُحذِّرُهُ، فَيُعْصَى ذَلِكَ الرَّسُولَ، وَيُسْتَمَرَّ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ بَعْدَ الْإِنذَارِ وَالْإِعْدَارِ.

وَقَدْ أَوْضَحَ جَلَّ وَعَلَا هَذَا الْمَعْنَى فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ، فَصَرَّحَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بِأَنَّ لَا بُدَّ أَنْ يَقْطَعَ حُجَّةٌ كُلِّ أَحَدٍ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، مُبَشِّرِينَ مَنْ أَطَاعَهُمْ بِالْجَنَّةِ، وَمُنذِرِينَ مَنْ عَصَاهُمْ النَّارَ.

(١) [أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن] [(٣/٦٥)].

وَهَذِهِ الْحُجَّةُ الَّتِي أَوْضَحَ هُنَا قَطْعَهَا بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ،
بَيَّنَّهَا فِي آخِرِ سُورَةِ طه بِقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَا هُمْ بَعْدَآبٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى.

وَأَشَارَ لَهَا فِي (سُورَةِ الْقَصَصِ) بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وَقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ
الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]، وَقَوْلِهِ: ﴿يَتَأَهَّلِ الْكُذِّبُ قَدْ جَاءَكُمْ
رَسُولُنَا يَبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ
جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩] الآية، وَكَقَوْلِهِ: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ
فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ١٥٥ ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكُذِّبُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ
قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ ١٥٦ ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكُذِّبُ لَكُنَّا
أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥-
١٥٧] الآية، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَيُوضِّحُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ وَأَمْثَالُهَا فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مِنْ
أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا لَا يُعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ الْإِنذَارِ وَالْإِعْذَارِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ
عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تَضْرِيحُهُ جَلَّ وَعَلَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ بِأَنَّ لَمْ يُدْخِلْ أَحَدًا
النَّارَ إِلَّا بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْإِنذَارِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا:
﴿تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْتِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَنَتَهَا لَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ٨ ﴿قَالُوا بَلَى قَدْ
جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩] الآية.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ قَوْلَهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْغَيْظُ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ﴾ يَعُمُّ جَمِيعَ الْأَفْوَاجِ الْمُلقِينَ فِي النَّارِ.

قَالَ أَبُو حَيَّانٍ فِي «الْبَحْرِ الْمُحِيطِ» فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِهَا مَا نَصَّهُ: وَ (كُلَّمَا) تَدُلُّ عَلَى عُمُومِ أَرْمَانَ الْإِلْقَاءِ، فَتَعُمُّ الْمُلقِينَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عَامٌّ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ.

وَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ: أَنَّ الْمُوصُولَاتِ كَالَّذِي وَالَّتِي وَفُرُوعِهَا مِنْ صِيغِ الْعُمُومِ، لِعُمُومِهَا فِي كُلِّ مَا تَشْمَلُهُ صِلَاتُهَا، وَعَقْدُهُ فِي مَرَاقِي السُّعُودِ بِقَوْلِهِ فِي صِيغِ الْعُمُومِ:

صِيغَةُ كُلِّ أَوْ الْجَمِيعِ وَقَدْ تَلَا الَّذِي الَّتِي الْفُرُوعِ

وَمُرَادُهُ بِالْبَيْتِ: أَنَّ لَفْظَةَ (كُلُّ، وَجَمِيعِ، وَالَّذِي، وَالَّتِي) وَفُرُوعِهَا كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الصِّيغِ الْعُمُومِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ عَامٌّ فِي جَمِيعِ الْكُفَّارِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ فِي أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ النَّارِ قَدْ أُنذِرْتَهُمُ الرُّسُلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا، فَعَصَوْا أَمْرَ رَبِّهِمْ، كَمَا هُوَ وَاضِحٌ.

وَنَظِيرُهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ (٣١) وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا

يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴿فاطر: ٣٦-٣٧﴾، فَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾، عَامٌّ أَيْضًا فِي جَمِيعِ أَهْلِ النَّارِ، كَمَا تَقَدَّمَ إِضَاحُهُ قَرِيبًا.

وَنَظِيرُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ أَدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُبُوا وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿غافر: ٤٩-٥٠﴾، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ أَهْلِ النَّارِ أَنْذَرْتَهُمُ الرُّسُلُ فِي دَارِ الدُّنْيَا. وَهَذِهِ الْآيَاتُ الَّتِي ذَكَرْنَا وَأَمْثَالُهَا فِي الْقُرْآنِ تُدَلُّ عَلَى عَذْرِ أَهْلِ الْفِتْرَةِ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَأْتِهِمْ نَذِيرٌ وَلَوْ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ، وَهَذَا قَالَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ.

وَذَهَبَتْ جَمَاعَةٌ أُخْرَى مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ فَهُوَ فِي النَّارِ وَلَوْ لَمْ يَأْتِهِ نَذِيرٌ، وَاسْتَدَلُّوا بِظَوَاهِرِ آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَبِأَحَادِيثٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. فَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَدَلُّوا بِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يُمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولِيئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولِيئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مَلَأُ الْأَرْضَ ذَهَبًا وَلَوْ آفَنَدَى بِهِ﴾ أُولِيئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ

عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ﴿[المائدة: ٧٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠]، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وظاهر جميع هذه الآيات العموم؛ لأنها لم تُخصَّصْ كَافِرًا دُونَ كَافِرٍ، بَلْ ظَاهِرُهَا شُمُولُ جَمِيعِ الْكُفَّارِ.

وَمِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْكُفَّارَ لَا يُعْذَرُونَ فِي كُفْرِهِمْ بِالْفِتْرَةِ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا عَفَّانُ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ أَبِي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ» فَلَمَّا قَمِيَ دَعَاهُ فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ». وَقَالَ مُسْلِمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي صَحِيحِهِ أَيْضًا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ - وَاللَّفْظُ لِيَحْيَى - قَالَا: حَدَّثَنَا مَرْوَانُ بْنُ مُعَاوِيَةَ، عَنْ يَزِيدَ - يَعْنِي ابْنَ كَيْسَانَ - عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لِأُمَّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي»، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، قَالَا: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدٍ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ فَبَكَى وَأَبَكَى مِنْ حَوْلِهِ. فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يُؤْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي، فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تُدَكِّرُ الْمَوْتَ»، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدَّالَّةِ عَلَى عَدَمِ عُذْرِ الْمُشْرِكِينَ بِالْفِتْرَةِ.

وَهَذَا الْخِلَافُ مَشْهُورٌ بَيْنَ أَهْلِ الْأُصُولِ: هَلِ الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْفِتْرَةِ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَوْثَانَ فِي النَّارِ لِكُفْرِهِمْ، أَوْ مَعْدُورُونَ بِالْفِتْرَةِ؟ وَعَقْدُهُ فِي «مَرَاقِي السُّعُودِ» بِقَوْلِهِ:

ذُو فَتْرَةٍ بِالْفَرْعِ لَا يُرَاعُ وَفِي الْأُصُولِ يَبْنَهُمْ نَزَاعُ
وَمِمَّنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْفَتْرَةِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الْكُفْرِ فِي النَّارِ: النَّوَوِيُّ فِي
"شَرْحِ مُسْلِمٍ"، وَحَكَى عَلَيْهِ الْقَرَائِيُّ فِي "شَرْحِ التَّنْقِيحِ" الْإِجْمَاعَ، كَمَا نَقَلَهُ عَنْهُ
صَاحِبُ "نَشْرِ الْبُنُودِ".

وَأَجَابَ أَهْلَ هَذَا الْقَوْلِ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ
رَسُولًا﴾ مِنْ أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ:

الأوَّلُ: أَنَّ التَّعْذِيبَ الْمَنْفِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ﴾ الْآيَةِ، وَأَمْثَالَهَا مِنْ
الْآيَاتِ، إِنَّمَا هُوَ التَّعْذِيبُ الدُّنْيَوِيُّ، كَمَا وَقَعَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَذَابِ بِقَوْمِ نُوحٍ،
وَقَوْمِ هُودٍ، وَقَوْمِ صَالِحٍ، وَقَوْمِ لُوطٍ، وَقَوْمِ شُعَيْبٍ، وَقَوْمِ مُوسَى وَأَمْثَالِهِمْ،
وَإِذَا فَلَا يُنَافِي ذَلِكَ التَّعْذِيبَ فِي الْآخِرَةِ.

وَسَبَّ هَذَا الْقَوْلَ الْفُرْطُيُّ، وَأَبُو حَيَّانَ، وَالشُّوكَانِيُّ وَغَيْرُهُمْ فِي تَفَاسِيرِهِمْ
إِلَى الْجُمْهُورِ.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ مَحَلَّ الْعُذْرِ بِالْفَتْرَةِ الْمَنْصُوصَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا
مُعَذِّبِينَ﴾ الْآيَةِ، وَأَمْثَالَهَا فِي غَيْرِ الْوَاضِحِ الَّذِي لَا يُخْفَى عَلَى أَدْنَى عَاقِلٍ، أَمَّا
الْوَاضِحُ الَّذِي لَا يُخْفَى عَلَى مَنْ عِنْدَهُ عَقْلٌ كَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَلَا يُعْذَرُ فِيهِ أَحَدٌ؛
لِأَنَّ الْكُفَّارَ يُقَرِّونَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّهُمْ، الْخَالِقُ الرَّازِقُ، النَّافِعُ، الضَّارُّ، وَيَتَحَقَّقُونَ
كُلَّ التَّحَقُّقِ أَنَّ الْأَوْثَانَ لَا تَقْدِرُ عَلَى جَلْبِ نَفْعٍ وَلَا عَلَى دَفْعِ ضَرٍّ، كَمَا قَالَ عَنْ
قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: 65]، وَكَمَا جَاءَتْ الْآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ بِكَثْرَةٍ بِأَتَمِّهِمْ وَقَتَ
الشَّدَائِدِ يُجْلِصُونَ الدُّعَاءَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، لِعِلْمِهِمْ أَنَّ غَيْرَهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، كَقَوْلِهِ:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية، وَقَوْلِهِ:
 ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢] الآية، وَقَوْلِهِ:
 ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهًا﴾ [الإسراء: ٦٧] الآية، إِلَى غَيْرِ
 ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَلَكِنَّ الْكُفَّارَ غَالَطُوا أَنْفُسَهُمْ لِشِدَّةِ تَعَصُّبِهِمْ لِأَوْثَانِهِمْ،
 فَزَعَمُوا أَنَّهَا تُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفَى، وَأَنَّهَا شَفَعَاؤُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ؛ مَعَ أَنَّ الْعَقْلَ يَقْطَعُ
 بِنَفْيِ ذَلِكَ.

الْوَجْهُ الثَّلَاثُ: أَنَّ عِنْدَهُمْ بَقِيَّةَ إِذْذَارٍ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ الَّذِينَ أُرْسِلُوا
 قَبْلَ نَبِيِّنا ﷺ، كَأِبْرَاهِيمَ وَغَيْرِهِ، وَأَنَّ الْحُجَّةَ قَائِمَةٌ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَجَزَمَ بِهَذَا
 النَّوَوِيُّ فِي "شَرْحِ مُسْلِمٍ"، وَمَالَ إِلَيْهِ الْعِبَادِيُّ فِي "الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ".

الْوَجْهُ الرَّابِعُ: مَا جَاءَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، الدَّالَّةِ عَلَى
 أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْفِتْرَةِ فِي النَّارِ، كَمَا قَدَّمْنَا بَعْضَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ بِذَلِكَ فِي
 "صَحِيحِ مُسْلِمٍ" وَغَيْرِهِ.

وَأَجَابَ الْقَائِلُونَ بِعُذْرِهِمْ بِالْفِتْرَةِ عَنْ هَذِهِ الْأَوْجُهِ الْأَرْبَعَةِ، فَأَجَابُوا عَنْ
 الْوَجْهِ الْأَوَّلِ، وَهُوَ كَوْنُ التَّعْذِيبِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾،
 إِنَّمَا هُوَ التَّعْذِيبُ الدُّنْيَوِيُّ دُونَ الْأُخْرَوِيِّ مِنْ وَجْهَيْنِ:

الأَوَّلُ: أَنَّهُ خِلَافَ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ انْتِفَاءُ التَّعْذِيبِ مُطْلَقًا،
 فَهُوَ أَعْمٌ مِنْ كَوْنِهِ فِي الدُّنْيَا، وَصَرَفُ الْقُرْآنِ عَنْ ظَاهِرِهِ مَمْنُوعٌ إِلَّا بِدَلِيلٍ يَجِبُ
 الرَّجُوعُ إِلَيْهِ.

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الْقُرْآنَ دَلَّ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ عَنْ شُمُولِ التَّعْذِيبِ الْمُنْفِيِّ فِي
 الْآيَةِ لِلتَّعْذِيبِ فِي الْآخِرَةِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾

قَالُوا بَلَىٰ ﴿٨-٩﴾ [الملك: ٨-٩]، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَىٰ أَنَّ جَمِيعَ أَفْوَاجِ أَهْلِ النَّارِ مَا عَذَّبُوا فِي
الْآخِرَةِ إِلَّا بَعْدَ إِنذَارِ الرَّسُولِ، كَمَا تَقَدَّمَ إِيْضَا حُهُ بِالْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ.

وَأَجَابُوا عَنِ الْوَجْهِ الثَّانِي: وَهُوَ أَنَّ مَحَلَّ الْعُذْرِ بِالْفِتْرَةِ فِي غَيْرِ الْوَاضِحِ
الَّذِي لَا يُخْفَى عَلَىٰ أَحَدٍ بِنَفْسِ الْجَوَابِينَ الْمَذْكُورِينَ أَنْفَاءً؛ لِأَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْوَاضِحِ
وغيرِهِ مُخَالَفٌ لِظَاهِرِ الْقُرْآنِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ دَلِيلٍ يَجِبُ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ
نَصَّ عَلَىٰ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ مَا عَذَّبُوا بِهَا حَتَّىٰ كَذَّبُوا الرَّسُولَ فِي دَارِ الدُّنْيَا، بَعْدَ
إِنذَارِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْكُفْرِ الْوَاضِحِ، كَمَا تَقَدَّمَ إِيْضَا حُهُ.

وَأَجَابُوا عَنِ الْوَجْهِ الثَّلَاثِ الَّذِي جَزَمَ بِهِ النَّوَوِيُّ، وَمَالَ إِلَيْهِ الْعَبَّادِيُّ وَهُوَ
قِيَامُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ بِإِنذَارِ الرَّسُولِ الَّذِينَ أُرْسِلُوا قَبْلَهُ ﷺ بِأَنَّهُ قَوْلٌ بَاطِلٌ بِلَا
شَكٍّ، لِكَثْرَةِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمُصَرِّحَةِ بِبُطْلَانِهِ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَاَهُمْ أَنَّهُمْ أُنذِرُوا عَلَى
الْسِنَةِ بَعْضِ الرَّسُولِ، وَالْقُرْآنُ يَنْفِي هَذَا نَفْيًا بَاتًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ، كَقَوْلِهِ فِي (يس):
﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وَ (مَا) فِي قَوْلِهِ: ﴿مَّا أُنذِرَ
ءَابَاؤُهُمْ﴾ نَافِيَةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ، لَا مَوْصُولَةٌ، وَتَدُلُّ لِذَلِكَ الْفَاءِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَهُمْ
غَافِلُونَ﴾، وَكَقَوْلِهِ فِي (الْقَصَصِ): ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ
رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [القصص: ٤٦]
الآيَةِ، وَكَقَوْلِهِ فِي (سَبَأٍ): ﴿وَمَا ءَانَيْنَهُمْ مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ
قَبْلَكَ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]، وَكَقَوْلِهِ فِي (الْمِ السَّجْدَةِ): ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ بَلْ هُوَ
الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [السجدة: ٣] الْآيَةِ، إِلَى غَيْرِ
ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَأَجَابُوا عَنِ الْوَجْهِ الرَّابِعِ: بِأَنَّ تِلْكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ أَخْبَارُ أَحَادٍ يُقَدَّمُ عَلَيْهَا الْقَاطِعُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى ﴿[الملك: ٨-٩]، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَأَجَابَ الْقَائِلُونَ بِالْعُذْرِ بِالْفِتْرَةِ أَيْضًا عَنِ الْآيَاتِ الَّتِي اسْتَدَلَّ بِهَا مُحَالِفُوهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]، إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ، بِأَنَّ مَحَلَّ ذَلِكَ فِيهَا إِذَا أُرْسِلَتْ إِلَيْهِمُ الرُّسُلُ فَكَذَّبُوهُمْ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. وَأَجَابَ الْقَائِلُونَ بِتَعْذِيبِ عِبْدَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ أَهْلِ الْفِتْرَةِ عَنْ قَوْلِ مُحَالِفِيهِمْ: إِنَّ الْقَاطِعَ الَّذِي هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ يَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَى أَخْبَارِ الْأَحَادِ الدَّالَّةِ عَلَى تَعْذِيبِ بَعْضِ أَهْلِ الْفِتْرَةِ، كَحَدِيثِي مُسْلِمٍ فِي صَحِيحِهِ الْمُتَقَدِّمِينَ بِأَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ، وَالْحَدِيثَيْنِ كِلَاهُمَا خَاصٌّ فِي شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، وَالْمَعْرُوفُ فِي الْأُصُولِ أَنَّهُ لَا يَتَعَارَضُ عَامٌّ وَخَاصٌّ؛ لِأَنَّ الْخَاصَّ يَقْضِي عَلَى الْعَامِّ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ، خِلَافًا لِأَيِّ حَنِيفَةٍ **وَاللَّهُ**، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.

فَمَا أَخْرَجَهُ دَلِيلٌ خَاصٌّ خَرَجَ مِنَ الْعُمُومِ، وَمَا لَمْ يُخْرِجْهُ دَلِيلٌ خَاصٌّ بَقِيَ دَاخِلًا فِي الْعُمُومِ، كَمَا تَقَرَّرَ فِي الْأُصُولِ.

وَأَجَابَ الْمَانِعُونَ بِأَنَّ هَذَا التَّخْصِصَ يُبْطِلُ حِكْمَةَ الْعَامِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا تَمَدَّحُ بِكَمَالِ الْإِنْصَافِ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذِّبُ حَتَّى يَقْطَعَ حُجَّةَ الْمُعَذَّبِ بِإِنْذَارِ الرُّسُلِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، وَأَشَارَ لِأَنَّ ذَلِكَ الْإِنْصَافَ الْكَامِلَ، وَالْإِعْذَارَ الَّذِي هُوَ

قَطْعُ الْعُذْرِ عِلَّةٌ لِعَدَمِ التَّعْذِيبِ، فَلَوْ عَذَّبَ إِنْسَانًا وَاحِدًا مِنْ غَيْرِ إِذْنَارٍ لَأَخْتَلَّتْ تِلْكَ الْحِكْمَةُ الَّتِي تَمْدَحُ اللَّهُ بِهَا، وَلَثَبْتِ لِدَلِكِ الْإِنْسَانَ الْحُجَّةَ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ الرُّسُلَ لِقَطْعِهَا، كَمَا بَيَّنَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] الْآيَةَ، وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلَكْنَهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]، كَمَا تَقَدَّمَ إِيْضًا حُجَّةً.

وَأَجَابَ الْمُخَالَفُونَ عَنْ هَذَا: بِأَنَّهُ لَوْ سَلَّمَ أَنَّ عَدَمَ الْإِذْنَارِ فِي دَارِ الدُّنْيَا عِلَّةٌ لِعَدَمِ التَّعْذِيبِ فِي الْآخِرَةِ، وَحَصَلَتْ عِلَّةُ الْحُكْمِ الَّتِي هِيَ عَدَمُ الْإِذْنَارِ فِي الدُّنْيَا، مَعَ فَقْدِ الْحُكْمِ الَّذِي هُوَ عَدَمُ التَّعْذِيبِ فِي الْآخِرَةِ لِلنَّصِّ فِي الْأَحَادِيثِ عَلَى التَّعْذِيبِ فِيهَا، فَإِنَّ وُجُودَ عِلَّةِ الْحُكْمِ مَعَ فَقْدِ الْحُكْمِ الْمُسَمَّى فِي اضْطِلَاحِ أَهْلِ الْأُصُولِ بِ (النَّقْضِ) تَخْصِصٌ لِلْعِلَّةِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ قَصَرَ لَهَا عَلَى بَعْضِ أَفْرَادِ مَعْلُومِهَا بِدَلِيلٍ خَارِجٍ كَتَخْصِصِ الْعَامِّ؛ أَيَّ قَصْرُهُ عَلَى بَعْضِ أَفْرَادِهِ بِدَلِيلٍ، وَالْخِلَافُ فِي النَّقْضِ هَلْ هُوَ إِبْطَالٌ لِلْعِلَّةِ، أَوْ تَخْصِصٌ لَهَا مَعْرُوفٌ فِي الْأُصُولِ، وَعَقَدَ الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ صَاحِبُ "مَرَاقِي السُّعُودِ" بِقَوْلِهِ فِي مَبْحَثِ الْقَوَادِحِ:

مِنْهَا وَجُودُ الْوَصْفِ دُونَ الْحُكْمِ	سَمَاهُ بِالنَّقْضِ وَعَاةُ الْعِلْمِ
وَالْأَكْثَرُونَ عِنْدَهُمْ لَا يَقْدَحُ	بَلْ هُوَ تَخْصِصٌ وَذَا مُصَحِّحٌ
وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مَالِكٍ تَخْصِصٌ	إِنْ يَكُ الْإِسْتِنْبَاطُ لَا التَّنْصِصُ
وَعَكْسُ هَذَا قَدْ رَأَاهُ الْبَعْضُ	وَمُتَّقَى ذِي الْإِخْتِصَارِ النَّقْضُ
إِنْ لَمْ تَكُنْ مَنْصُوصَةً بِظَاهِرٍ	وَلَيْسَ فِيهَا اسْتِنْبَاطٌ بِضَائِرٍ
إِنْ جَا لِفَقْدِ الشَّرْطِ أَوْ لِمَا مَنَعَ	وَالْوَفْقُ فِي مِثْلِ الْعَرَايَا قَدْ وَقَعَ

فَقَدْ أَشَارَ فِي الْآيَاتِ إِلَى خَمْسَةِ أَقْوَالٍ فِي النَّقْضِ: هَلْ هُوَ تَخْصِيصٌ، أَوْ
إِبْطَالٌ لِلْعِلَّةِ، مَعَ التَّفَاصِيلِ الَّتِي ذَكَرَهَا فِي الْأَقْوَالِ الْمَذْكُورَةِ.

وَاخْتَارَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ: أَنَّ تَخَلُّفَ الْحُكْمِ عَنِ الْوَصْفِ
إِنْ كَانَ لِأَجْلِ مَانِعٍ مَنَعَ مِنْ تَأْثِيرِ الْعِلَّةِ، أَوْ لِفَقْدِ شَرْطِ تَأْثِيرِهَا فَهُوَ تَخْصِيصٌ
لِلْعِلَّةِ، وَإِلَّا فَهُوَ نَقْضٌ وَإِبْطَالٌ لَهَا، فَالْقَتْلُ الْعَمْدُ الْعُدْوَانُ عِلَّةٌ لِرُجُوبِ
الْقِصَاصِ إِجْمَاعًا.

فَإِذَا وُجِدَ هَذَا الْوَصْفُ الْمُرَكَّبَ الَّذِي هُوَ الْقَتْلُ الْعَمْدُ الْعُدْوَانُ، وَلَمْ يُوجَدْ
الْحُكْمُ الَّذِي هُوَ الْقِصَاصُ فِي قَتْلِ الْوَالِدِ وَلَدَهُ لِكَوْنِ الْأَبَوَّةِ مَانِعًا مِنْ تَأْثِيرِ الْعِلَّةِ
فِي الْحُكْمِ، فَلَا يُقَالُ هَذِهِ الْعِلَّةُ مَنْقُوضَةٌ؛ لِتَخَلُّفِ الْحُكْمِ عَنْهَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ،
بَلْ هِيَ عِلَّةٌ مَنَعَ مِنْ تَأْثِيرِهَا مَانِعٌ، فَيُخَصِّصُ تَأْثِيرُهَا بِمَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْهُ مَانِعٌ.

وَكَذَلِكَ مَنْ زَوَّجَ أُمَّتَهُ مِنْ رَجُلٍ، وَغَرَّهُ فَرَعَمَ لَهُ أَنَّهَا حُرَّةٌ فَوَلَدَ مِنْهَا، فَإِنَّ
الْوَلَدَ يَكُونُ حُرًّا، مَعَ أَنَّ رِقَّ الْأُمِّ عِلَّةٌ لِرِقِّ الْوَلَدِ إِجْمَاعًا؛ لِأَنَّ كُلَّ ذَاتِ رَحِمٍ
فَوَلَدُهَا بِمَنْزِلَتِهَا؛ لِأَنَّ الْغُرُورَ مَانِعٌ مَنَعَ مِنْ تَأْثِيرِ الْعِلَّةِ الَّتِي هِيَ رِقُّ الْأُمِّ فِي
الْحُكْمِ الَّذِي هُوَ رِقُّ الْوَلَدِ.

وَكَذَلِكَ الزَّنى؛ فَإِنَّهُ عَلِمَ لِلرَّجْمِ إِجْمَاعًا.

فَإِذَا تَخَلَّفَ شَرْطُ تَأْثِيرِ هَذِهِ الْعِلَّةِ الَّتِي هِيَ الزَّنى فِي هَذَا الْحُكْمِ الَّذِي هِيَ
الرَّجْمُ، وَنَعْنِي بِذَلِكَ الشَّرْطِ الْإِحْصَانَ، فَلَا يُقَالُ إِنَّهَا عِلَّةٌ مَنْقُوضَةٌ، بَلْ هِيَ عِلَّةٌ
تَخَلَّفَ شَرْطُ تَأْثِيرِهَا، وَأَمْثَالُ هَذَا كَثِيرَةٌ جِدًّا، هَكَذَا قَالَهُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ.

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الَّذِي يَظْهَرُ: أَنَّ آيَةَ (الْحَشْرِ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ النَّقْضَ
تَخْصِيصٌ لِلْعِلَّةِ مُطْلَقًا، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ، وَنَعْنِي بِآيَةِ (الْحَشْرِ) قَوْلَهُ تَعَالَى فِي بَنِي

النَّصِيرِ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ [الحشر: ٣].

ثُمَّ بَيْنَ جَلٍّ وَعَلَا عِلَّةَ هَذَا الْعِقَابِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الحشر: ٤] الآيَةَ، وَقَدْ يُوجَدُ بَعْضُ مَنْ شَاقَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَمْ يُعَذَّبْ بِمِثْلِ الْعَذَابِ الَّذِي عُذِّبَ بِهِ بَنُو النَّصِيرِ، مَعَ الْإِشْتِرَاكِ فِي الْعِلَّةِ الَّتِي هِيَ مُشَاقَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ.

فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ تَخَلُّفَ الْحُكْمِ عَنِ الْعِلَّةِ فِي بَعْضِ الصُّوَرِ تَخْصِصٌ لِلْعِلَّةِ لَا نَقْضٌ لَهَا، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

أَمَّا مِثْلُ بَيْعِ التَّمْرِ الْيَابِسِ بِالرَّطْبِ فِي مَسْأَلَةِ بَيْعِ الْعَرَايَا، فَهُوَ تَخْصِصٌ لِلْعِلَّةِ إِجْمَاعًا لَا نَقْضٌ لَهَا، كَمَا أَشَارَ لَهُ فِي الْآيَاتِ بِقَوْلِهِ:

(وَالْوَفْقُ فِي مِثْلِ الْعَرَايَا قَدْ وَقَعَ)

قَالَ مُقَيِّدُهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ: الظَّاهِرُ أَنَّ التَّحْقِيقَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي هِيَ: هَلْ يَعْذَرُ الْمُشْرِكُونَ بِالْفِتْرَةِ أَوْ لَا؟ هُوَ أَتَمُّهُمْ مَعْذُورُونَ بِالْفِتْرَةِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمْتَحِنُهُمْ بِنَارٍ يَأْمُرُهُمْ بِاقتِحَامِهَا، فَمَنْ اقتَحَمَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَهُوَ الَّذِي كَانَ يُصَدِّقُ الرُّسُلَ لَوْ جَاءَتْهُ فِي الدُّنْيَا، وَمَنْ ائْتَمَعَ دَخَلَ النَّارَ وَعُذِّبَ فِيهَا، وَهُوَ الَّذِي كَانَ يَكْذِبُ الرُّسُلَ لَوْ جَاءَتْهُ فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا كَانُوا عَامِلِينَ لَوْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ.

وَإِنَّمَا قُلْنَا: إِنَّ هَذَا هُوَ التَّحْقِيقُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ لِأَمْرَيْنِ:

الأوّل: أَنَّ هَذَا ثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَثُبُوتُهُ عَنْهُ نَصٌّ فِي مَحَلِّ النَّزَاعِ؛
فَلَا وَجْهَ لِلنِّزَاعِ أَلْبَتَّةَ مَعَ ذَلِكَ.

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ
بِصَدَدِهَا، بَعْدَ أَنْ سَاقَ الْأَحَادِيثَ الْكَثِيرَةَ الدَّالَّةَ عَلَى عُذْرِهِمْ بِالْفِتْرَةِ وَامْتِحَانِهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَادًّا عَلَى ابْنِ عَبْدِالْبَرِّ تَضْعِيفَ أَحَادِيثِ عُذْرِهِمْ وَامْتِحَانِهِمْ، بِأَنَّ
الْآخِرَةَ دَارُ جَزَاءٍ لَا عَمَلٍ، وَأَنَّ التَّكْلِيفَ بِدُخُولِ النَّارِ تَكْلِيفٌ بِمَا لَا يُطَاقُ وَهُوَ
لَا يُمَكِّنُ، مَا نَصَّهُ:

وَالْجَوَابُ عَمَّا قَالَ: أَنَّ أَحَادِيثَ هَذَا الْبَابِ مِنْهَا مَا هُوَ صَحِيحٌ كَمَا قَدْ نَصَّ
عَلَى ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ، وَمِنْهَا مَا هُوَ حَسَنٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ضَعِيفٌ يَتَّقَوْنَ
بِالصَّحِيحِ وَالْحَسَنِ، وَإِذَا كَانَتْ أَحَادِيثُ الْبَابِ الْوَاحِدِ مُتَّصِلَةً مُتَعَاضِدَةً عَلَى
هَذَا النَّمَطِ، أَفَادَتِ الْحُجَّةَ عِنْدَ النَّاطِرِ فِيهَا، وَأَمَّا قَوْلُهُ: إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ دَارُ
جَزَاءٍ، فَلَا شَكَّ أَنَّهَا دَارُ جَزَاءٍ، وَلَا يُنَافِي التَّكْلِيفَ فِي عَرَصَاتِهَا قَبْلَ دُخُولِ الْجَنَّةِ
أَوْ النَّارِ، كَمَا حَكَاهُ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ عَنْ مَذَهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ
مِنْ امْتِحَانِ الْأَطْفَالِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى
السُّجُودِ﴾ [القلم: ٤٢].

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحَاحِ وَغَيْرِهَا: (أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَسْجُدُونَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّ
الْمُنَافِقَ لَا يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، وَيَعُودُ ظَهْرُهُ كَالصَّفِيحَةِ الْوَاحِدَةِ طَبَقًا وَاحِدًا، كُلَّمَا أَرَادَ
السُّجُودَ خَرَّ لِقَفَاهُ)، وَفِي الصَّحِيحَيْنِ فِي الرَّجُلِ الَّذِي يَكُونُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ
خُرُوجًا مِنْهَا: (أَنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ عُهُودَهُ وَمَوَاقِفَهُ إِلَّا يَسْأَلُ غَيْرَ مَا هُوَ فِيهِ، وَيَتَكَرَّرُ
ذَلِكَ مِنْهُ، وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا بَنَ آدَمَ، مَا أَعْدَرَكَ! ثُمَّ يَأْذَنُ لَهُ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ)

وَأَمَّا قَوْلُهُ: فَكَيْفَ يُكَلِّفُهُمُ اللَّهُ دُخُولَ النَّارِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي وُسْعِهِمْ؟ فَلَيْسَ هَذَا بِمَنْعٍ مِنْ صِحَّةِ الْحَدِيثِ. «فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ الْعِبَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْجَوَازِ عَلَى الصَّرَاطِ، وَهُوَ جِسْرٌ عَلَى مَتْنٍ جَهَنَّمَ أَحَدٌ مِنَ السَّيْفِ وَأَدْقُ مِنَ الشَّعْرِ، وَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهِ بِحَسَبِ أَعْمَالِهِمْ، كَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَابِ. وَمِنْهُمْ السَّاعِي، وَمِنْهُمْ الْمَاشِي، وَمِنْهُمْ مَنْ يَجْبُو حَبْوًا، وَمِنْهُمْ الْمَكْدُوسُ عَلَى وَجْهِهِ فِي النَّارِ» وَلَيْسَ مَا وَرَدَ فِي أَوْلِيكَ بِأَعْظَمَ مِنْ هَذَا، بَلْ هَذَا أَطْمٌ وَأَعْظَمُ.

وَأَيْضًا: فَقَدْ ثَبَتَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّ الدَّجَالَ يَكُونُ مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، وَقَدْ أَمَرَ الشَّارِعُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُدْرِكُونَهُ أَنْ يَشْرَبَ أَحَدُهُمْ مِنَ الَّذِي يَرَى أَنَّهُ نَارٌ، فَإِنَّهُ يَكُونُ عَلَيْهِ بَرْدًا وَسَلَامًا، فَهَذَا نَظِيرُ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَقْتُلُوا أَنْفُسَهُمْ، فَكَتَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى قَتَلُوا فِيمَا قِيلَ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ سَبْعِينَ أَلْفًا، يَقْتُلُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأَخَاهُ، وَهُمْ فِي عِمَايَةِ عَمَامَةٍ أَرْسَلَهَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ؛ وَذَلِكَ عُقُوبَةٌ لَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْعِجْلِ، وَهَذَا أَيْضًا شَاقٌّ عَلَى النَّفْسِ جِدًّا لَا يَتَقَاصِرُ عَمَّا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الْمَذْكُورِ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. انْتَهَى كَلَامُ ابْنِ كَثِيرٍ بِلَفْظِهِ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَيْضًا قَبْلَ هَذَا الْكَلَامِ بِقَلِيلٍ مَا نَصَّهُ:

وَمِنْهُمْ مَنْ ذَهَبَ إِلَى أَنَّهُمْ يُمْتَحَنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي عَرَصَاتِ الْمُحْشَرِ، فَمَنْ أَطَاعَ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَانْكَشَفَ عِلْمُ اللَّهِ فِيهِ بِسَابِقِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ عَصَى دَخَلَ النَّارَ دَاخِرًا، وَانْكَشَفَ عِلْمُ اللَّهِ فِيهِ بِسَابِقِ الشَّقَاوَةِ.

وَهَذَا الْقَوْلُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ كُلِّهَا، وَقَدْ صَرَّحَتْ بِهِ الْأَحَادِيثُ الْمُتَقَدِّمَةُ الْمُتَعَاضِدَةُ، الشَّاهِدُ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ.

وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ الَّذِي حَكَاهُ الشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْأَشْعَرِيُّ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَهُوَ الَّذِي نَصَرَهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْبَيْهَقِيُّ فِي كِتَابِ (الْإِعْتِقَادِ) وَكَذَلِكَ غَيْرُهُ مِنْ مُحَقِّقِي الْعُلَمَاءِ وَالْحَفَاطِ وَالنَّقَّادِ. انْتَهَى مَحَلُّ الْغَرَضِ مِنْ كَلَامِ ابْنِ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَهُوَ وَاضِحٌ جِدًّا فِيمَا ذَكَرْنَا.

الأمر الثاني: أَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ وَاجِبٌ مَتَى مَا أُمِّكَنَ بِلَا خِلَافٍ؛ لِأَنَّ إِعْمَالَ الدَّلِيلَيْنِ أَوْلَى مِنْ إِلْغَاءِ أَحَدِهِمَا، وَلَا وَجَهَ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْأَدِلَّةِ إِلَّا هَذَا الْقَوْلُ بِالْعُذْرِ وَالِامْتِحَانِ، فَمَنْ دَخَلَ النَّارَ فَهُوَ الَّذِي لَمْ يَمْتَثِلْ مَا أَمَرَ بِهِ عِنْدَ ذَلِكَ الْإِمْتِحَانِ، وَيَتَّفِقُ بِذَلِكَ جَمِيعُ الْأَدِلَّةِ، وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

وَلَا يُخْفَى أَنَّ مِثْلَ قَوْلِ ابْنِ عَبْدِ بَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: إِنَّ الْأَخِرَةَ دَارُ جَزَاءٍ لَا دَارُ عَمَلٍ، لَا يَصِحُّ أَنْ تَرِدَ بِهِ النُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ الثَّابِتَةُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا أَوْضَحْنَاهُ فِي كِتَابِنَا (دَفْعُ إِهْيَامِ الْإِضْطِرَابِ عَنِ آيَاتِ الْكِتَابِ). انْتَهَى النُّقْلُ عَنِ الشَّنْقِيطِيِّ فِي «أَضْوَاءِ الْبَيَانِ».

فإن العذر بالجهل هو الموافق للرحمة، والموافق لمقاصد الشريعة، فتنبه لهذه المسألة المهمة.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾:

يقولون ربنا: لا تحملنا آصارًا وأغلالاً لا نستطيعها ولا نطيعها. وقيل في معنى الإصر أنه العهد المؤكد. وقيل: هو العهد والميثاق الذي لا يطاق ولا يستطاع القيام بالوفاء به. وقيل: هو العبء الثقيل الذي يأصر حامله، أي: يجبسه عن الحركة والتصرف؛ لثقله. وقد أخبر الله تعالى عن رحمته بهذه الأمة

بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۗ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] [الأعراف: ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾:

أي: اليهود والنصارى، أخذت عليهم العهود والمواثيق فضيعوها؛ وذلك بسبب تعنتهم على أنبيائهم، وشدد عليهم. ولا أدل على ذلك من كثرة مسائلمهم على أنبيائهم، كما تقدم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «فَاتِمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ».

قال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكَفَرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَرِيصًا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَتَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ۗ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ ۗ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، وكما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وتأمل ما قصه الله تعالى من شأن البقرة، وما وقعوا فيه من التعت، حتى شدد عليهم بعد ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَننَّخِذْنَا هٰهُنَا قَالِ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَأ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا آتَنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبِّحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٦٧-٧١].

وما وقع عليهم في شأن دخول الأرض المقدسة، قال تعالى: ﴿يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرُدُّوا عَلَىٰ آدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُم غَلِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتم مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢١-٢٦].

إلى غير ذلك مما يعلمه عوام أهل الإسلام فضلاً عن خواصهم، وبالله التوفيق.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾:

أي أنهم توسلوا إلى الله ﷻ ألا يفرض عليهم ما لا طاقة لهم به، ويسألون الله ﷻ أن يوفقهم لما افترضه عليهم، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وقد ترك رسول الله ﷺ كثيراً من الأعمال مخافة أن تفرض على أمته فيعجزوا عنها، ومن ذلك: الوصال، وقيام رمضان في المسجد، ففي "المسند" عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ قالت: كَانَ النَّاسُ يُصَلُّونَ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ بِاللَّيْلِ أَوْ زَاعًا، يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ الشَّيْءُ مِنَ الْقُرْآنِ، فَيَكُونُ مَعَهُ النَّفْرُ الْخُمْسَةُ أَوْ السِّتَّةُ أَوْ أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَكْثَرُ، يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، قَالَتْ: فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنْ ذَلِكَ أَنْ أَنْصِبَ لَهُ حَصِيرًا عَلَى بَابِ حُجْرَتِي، فَفَعَلْتُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، قَالَتْ: فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مَنْ فِي الْمَسْجِدِ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْلًا طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلَ، وَتَرَكَ الْحَصِيرَ عَلَى حَالِهِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ تَحَدَّثُوا بِصَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِمَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، قَالَتْ: وَأَمْسَى الْمَسْجِدُ رَاجًا بِالنَّاسِ، فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ، ثُمَّ دَخَلَ بَيْتَهُ وَثَبَتَ النَّاسُ، قَالَتْ: فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا شَأْنُ النَّاسِ يَا عَائِشَةُ؟» قَالَتْ: فَقُلْتُ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ سَمِعَ النَّاسُ بِصَلَاتِكَ الْبَارِحَةَ بِمَنْ كَانَ فِي الْمَسْجِدِ، فَحَشَدُوا لِذَلِكَ لِتُصَلِّيَ بِهِمْ، قَالَتْ: فَقَالَ: «اطْوِ عَنَّا حَصِيرَكَ يَا عَائِشَةُ» قَالَتْ: فَفَعَلْتُ. وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَيْرَ غَافِلٍ، وَثَبَتَ النَّاسُ مَكَانَهُمْ حَتَّى خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الصُّبْحِ، فَقَالَتْ: فَقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ، أَمَا وَاللَّهِ مَا

بُتُّ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْلَتِي هَذِهِ غَافِلًا، وَمَا خَفِيَ عَلَيَّ مَكَانُكُمْ، وَلَكِنِّي تَخَوَّفْتُ أَنْ يُفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ، فَكُلُّوْا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا» قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: (إِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ). والحديث أصله في الصحيحين.

وفي مسلم (١١٠٤): عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي فِي رَمَضَانَ، فَجِئْتُ فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ آخِرُ فِقَامٍ أَيْضًا، حَتَّى كُنَّا رَهْطًا، فَلَمَّا حَسَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَا خَلْفَهُ جَعَلَ يَتَجَوَّزُ فِي الصَّلَاةِ، ثُمَّ دَخَلَ رَحْلَهُ، فَصَلَّى صَلَاةً لَا يُصَلِّيهَا عِنْدَنَا، قَالَ: قُلْنَا لَهُ حِينَ أَصْبَحْنَا: أَفْطَنْتَ لَنَا اللَّيْلَةَ؟ قَالَ: فَقَالَ: «نَعَمْ، ذَاكَ الَّذِي حَمَلَنِي عَلَى الَّذِي صَنَعْتُ» قَالَ: فَأَخَذَ يُوَاصِلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَذَاكَ فِي آخِرِ الشَّهْرِ، فَأَخَذَ رِجَالَ مِنْ أَصْحَابِهِ يُوَاصِلُونَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَالُ رِجَالٍ يُوَاصِلُونَ، إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِثْلِي، أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ تَمَادَّ لِي الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وَصَالًا يَدْعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ».

وما زال ﷺ يتردد بين موسى عليه السلام وبين ربه تعالى في تخفيف الصلاة، فعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَفَرَضَ اللَّهُ ﻋَلَيْ أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ، حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجَعْتُ، فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَارْجَعْتُ إِلَى مُوسَى، قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ، فَارْجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَارْجَعْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَارْجَعْتُهُ، فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ،

وَهِيَ حَمْسُونَ، لَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى، فَقَالَ: رَاجِعِ رَبِّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي» متفق عليه: البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

وفي مسلم (٨٢١): عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَ أَصَاةِ بَنِي غِفَارٍ، قَالَ: فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ أَتَاهُ الثَّانِيَّةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفَيْنِ»، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْرَفٍ، فَقَالَ: «أَسْأَلُ اللَّهَ مُعَافَاتَهُ وَمَغْفِرَتَهُ، وَإِنَّ أُمَّتِي لَا تُطِيقُ ذَلِكَ»، ثُمَّ جَاءَهُ الرَّابِعَةَ، فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَقْرَأَ أُمَّتَكَ الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، فَأَيُّمَا حَرْفٍ قَرَأْتَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ أَصَابُوا».

وهنا تنبيه: فقد قال الطحاوي في «عقيدته»: (وَلَمْ يَكْلَفْهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا مَا يُطِيقُونَ، وَلَا يُطِيقُونَ إِلَّا مَا كَلَّفَهُمْ). فرد عليه ابن أبي العز في «شرح الطحاوية» (٦٥٦/٢): وَلَا يَصِحُّ ذَلِكَ؛ لِأَنَّهُمْ يُطِيقُونَ فَوْقَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ، لَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ يُرِيدُ بِعِبَادِهِ الْيُسْرَ وَالتَّخْفِيفَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمُ﴾ [النساء: ٢٨]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]. فَلَوْ زَادَ فِيمَا كَلَّفْنَا بِهِ لِأَطْقْنَاهُ، وَلَكِنَّهُ تَفَضَّلَ عَلَيْنَا وَرَحِمَنَا، وَخَفَّفَ عَنَّا، وَلَمْ يَجْعَلْ عَلَيْنَا فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ. فَفِي الْعِبَارَةِ قَلْتُ، فَتَأَمَّلْهُ. انتهى

قوله تعالى: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا﴾:

سألوا الله ﷻ العفو والتجاوز، قال ابن زيد: (اعفُ عَنَّا إِنْ قَصَّرْنَا عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِكَ مِمَّا أَمَرْنَا بِهِ). والله ﷻ هو العفو الذي يعفو عن عباده ويتجاوز عنهم.

ومهما حرص العبد على الإتيان بالعبادة على الوجه الأكمل فقد يقع منه نوع تقصير، إما لسهو أو نسيان أو عجز أو جهل، إلا ما رحم الله وقليل ما هم؛ ولهذا شرع الله تعالى الاستغفار في أديار كثير من العبادات، كالصلاة، والحج.

وطلب العفو من الله تعالى من أجمع الدعاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ وَافَقْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «تَقُولِينَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ مُجِبُّ الْعَفْوِ، فَاعْفُ عَنِّي» أخرجه أحمد وغيره.

ومن صفات النبي ﷺ العفو والصفح والتجاوز، ففي "صحيح البخاري" (٢١٢٥): عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رضي الله عنه، قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي التَّوْرَةِ؟ قَالَ: أَجَلٌ، وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا، وَحِرْزًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمَتَوَكَّلَ لَيْسَ بِنَفْطٍ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بَأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُنًا عَمِيًّا، وَآذَانًا صَمًّا، وَقُلُوبًا غُلْفًا. تَابَعَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ هِلَالٍ، وَقَالَ سَعِيدٌ: عَنْ هِلَالٍ، عَنْ عَطَاءٍ، عَنْ ابْنِ سَلَامٍ غُلْفٌ: كُلُّ شَيْءٍ فِي غِلَافٍ، سَيْفٌ أَعْلَفٌ، وَقَوْسٌ غُلْفَاءُ، وَرَجُلٌ أَعْلَفٌ: إِذَا لَمْ يَكُنْ مَحْتُونًا.

وما رفع إليه ﷺ شيء في القصاص إلا أمر فيه بالعفو، وأجره عظيم، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَأَعْفِرْنَا﴾:

يقولون: وَاسْتُرْ عَلَيْنَا زَلَّةً إِنَّ أَتَيْنَاهَا فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ، فَلَا تُكْشِفْهَا وَلَا تَفْضَحْنَا بِإِظْهَارِهَا. أفاده الطبري. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فالله تعالى هو الغفور المتجاوز، والساتر لذنوب عباده، وكم من الأدعية عن رسول الله ﷺ في سؤال ذلك، فمنها:

عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان يقول في سبابة الموت: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي، وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ» متفق عليه: البخاري (٤٤٤٠)، ومسلم (٢٤٤٤).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلِّهِ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ، وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» متفق عليه: البخاري (٦٣٩٨)، مسلم (٢٧١٩).

وفي حديث علي رضي الله عنه عند مسلم: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَسْرَفْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ». مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم وما تأخر، ولكنه كان ﷺ متواضعا لربه، معلما لأُمَّته.

وأدلة القرآن والسنة متكاثرة على طلب المغفرة من الغفور سبحانه وتعالى، فعلى العبد أن يكون كثير الإلحاح على الله تعالى في التجاوز عنه، فالذنوب كثيرة، أسأل الله العفو والمغفرة.

قوله: ﴿وَارْحَمْنَا﴾:

يسألون الله تعالى الرحمة، وهو تعالى الرحمن الرحيم. والرحمة أعم من مغفرة الذنوب، وستر العيوب، بل يدخل فيها التوفيق للهداية وسلوك سبيل المؤمنين. قال الطبري رحمه الله تعالى: يَعْني بِذَلِكَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: تَعَمَّدَنَا مِنْكَ بِرَحْمَةٍ تُنَجِّنَا بِهَا مِنْ عِقَابِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بِنَاجٍ مِنْ عِقَابِكَ أَحَدٌ إِلَّا بِرَحْمَتِكَ إِيَّاهُ دُونَ عَمَلِهِ، وَلَيْسَتْ أَعْمَالُنَا مُنْجِيَتِنَا إِنْ أَنْتَ لَمْ تَرْحَمْنَا، فَوَفَّقْنَا لِمَا يُرْضِيكَ عَنَّا. انتهى

وفعلاً، لن ينجو أحد إلا برحمة الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لَنْ يُدْخَلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ» قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَّعَمِدَنِي اللَّهُ بِفَضْلِ وَرَحْمَةٍ، فَسَدُّوا وَقَارِبُوا، وَلَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ: إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزِدَّادَ خَيْرًا، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتَبَ» رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).

وأما قوله تعالى: ﴿أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]

أي: بسبب أعمالكم. قال ابن أبي العز رضي الله عنه في "شرح الطحاوية" (٦٤٣/٢): فَإِنَّ الْبَاءَ الَّتِي فِي النَّفْيِ غَيْرُ الْبَاءِ الَّتِي فِي الْإِثْبَاتِ، فَاَلْمَنْفِي فِي قَوْلِهِ ﷺ: «لَنْ يُدْخَلَ الْجَنَّةَ أَحَدٌ بِعَمَلِهِ» بَاءُ الْعَوْضِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْعَمَلُ كَالثَّمَنِ لِدُخُولِ الرَّجُلِ إِلَى الْجَنَّةِ، كَمَا زَعَمَتِ الْمُعْتَزِلَةُ أَنَّ الْعَامِلَ مُسْتَحِقُّ دُخُولِ الْجَنَّةِ عَلَى رَبِّهِ بِعَمَلِهِ! بَلْ ذَلِكَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ. وَالْبَاءُ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَاءُ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿[السجدة: ١٧] وَنَحْوَهَا، بَاءُ السَّبَبِ، أَيِّ بِسَبَبِ عَمَلِكُمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ، فَرَجَعَ الْكُلَّ إِلَى مَحْضِ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ. انتهى

وسؤال الرحمة متضمن لسؤال الجنة، ففي "الصحيحين": البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوتِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكَ مِنْ أَشَاءِ مَنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتِ عَذَابِي أَعَذِّبُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِلْؤُهَا، فَأَمَّا النَّارُ: فَلَا تَمْتَلِي حَتَّى يَضَعَ رِجْلَهُ فَتَقُولُ: قَطُّ قَطُّ، فَهَذَا لِكَ تَمْتَلِي وَيُرَوِّى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَلَا يَظْلِمُ اللَّهُ ﷻ مِنْ خَلْقِهِ أَحَدًا، وَأَمَّا الْجَنَّةُ: فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يُنْشِئُ لَهَا خَلْقًا».

قوله تعالى: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾:

يقولون: أنت ولينا، والولاية: ضد العداوة، وفي الدعاء المأثور: «وَتَوَلَّيْنِي فَيَمَن تَوَلَّيْتَ».

قال ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (٣٣٥ / ٢): وَأَصْلُ الْوِلَايَةِ الْقُرْبُ، وَأَصْلُ الْعِدَاوَةِ الْبُعْدُ، فَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ هُمُ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِمَا يُفَرِّجُهُمْ مِنْهُ، وَأَعْدَاؤُهُ الَّذِينَ أَبْعَدَهُمْ عَنْهُ بِأَعْمَالِهِمِ الْمُفْتَضِيَّةِ لِطَرْدِهِمْ وَإِبْعَادِهِمْ مِنْهُ، فَكَسَمَ أَوْلِيَاءَهُ الْمُفَرِّبِينَ قِسْمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَيَشْمَلُ ذَلِكَ فِعْلَ الْوَاجِبَاتِ، وَتَرَكَ الْمُحَرَّمَاتِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ الَّتِي افْتَرَضَهَا عَلَى عِبَادِهِ.

وَالثَّانِي: مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ بِالنَّوَافِلِ، فَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا طَرِيقَ يُوصَلُ إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَوِلَايَتِهِ، وَمَحَبَّتِهِ سِوَى طَاعَتِهِ الَّتِي شَرَعَهَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، فَمَنْ ادَّعَى وَوِلَايَةَ اللَّهِ، وَمَحَبَّتَهُ بِغَيْرِ هَذَا الطَّرِيقِ، تَبَيَّنَ أَنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ، كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادَةٍ مَن يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِهِ، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]، وَكَمَا حَكَى عَنِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَمَنُ أَتَى اللَّهَ بِحَبَنَةٍ﴾ [المائدة: ١٨] مَعَ إِضْرَارِهِمْ عَلَى تَكْذِيبِ رُسُلِهِ، وَازْتِكَابِ نَوَاهِيهِ، وَتَرْكِ فَرَائِضِهِ. فَلِذَلِكَ ذَكَرَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ الْفَرَائِضِ، وَهَذِهِ دَرَجَةُ الْمُقْتَصِدِينَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه: أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ أَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ، وَالْوَرَعُ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ، وَصِدْقُ النِّيَّةِ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي خُطْبَتِهِ: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ أَدَاءُ الْفَرَائِضِ، وَاجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ ﷻ إِنَّمَا افْتَرَضَ عَلَى عِبَادِهِ هَذِهِ الْفَرَائِضَ لِيُقَرَّبَهُمْ مِنْهُ، وَيُوجِبَ لَهُمْ رِضْوَانَهُ وَرَحْمَتَهُ. وَأَعْظَمُ فَرَائِضِ الْبَدَنِ الَّتِي تُقَرَّبُ إِلَيْهِ: الصَّلَاةُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»، وَقَالَ: «إِذَا كَانَ أَحَدُكُمْ يُصَلِّي، فَاتِمًا يُنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ رَبُّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُبْلَةِ». وَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لَوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلَاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ».

وَمِنَ الْفَرَائِضِ الْمُقَرَّبَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَدْلُ الرَّاعِي فِي رَعِيَّتِهِ، سِوَاءَ كَانَتْ رَعِيَّتُهُ عَامَّةً كَالْحَاكِمِ، أَوْ خَاصَّةً كَعَدْلِ أَحَادِ النَّاسِ فِي أَهْلِهِ وَوَلَدِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ». وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَلَى يَمِينِ

الرَّحْمَنِ - وَكَلْنَا يَدَيْهِ يَمِينٌ - الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا ؤَلُوا». وَفِي «التِّرْمِذِيِّ» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَحَبَّ الْعِبَادِ إِلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَدْنَاهُمْ إِلَيْهِ مَجْلِسًا إِمَامٌ عَادِلٌ». الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: دَرَجَةُ السَّابِقِينَ الْمُقَرَّبِينَ، وَهُمْ الَّذِينَ تَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ بِالْإِجْتِهَادِ فِي نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ، وَالْإِنْكَفَافِ عَنْ دَقَائِقِ الْمَكْرُوهَاتِ بِالْوَرَعِ، وَذَلِكَ يُوجِبُ لِلْعَبْدِ مَحَبَّةَ اللَّهِ، كَمَا قَالَ: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»، فَمَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ، رَزَقَهُ مَحَبَّةً وَطَاعَةً وَالِاسْتِغَالَ بِذِكْرِهِ وَخِدْمَتِهِ، فَأَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْقُرْبَ مِنْهُ، وَالرُّفْعَى لَدَيْهِ، وَالْحِظْوَةَ عِنْدَهُ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. انتهى

ومن كان الله تعالى وليه دافع عنه ورعاه ونصره وأعزه، وكفى بها ولاية، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] ومن عادى أولياء الله تعالى فهو محارب من الله تعالى، ففي البخاري (٦٥٠٢): عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَنِي بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيْتَهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ».

وتجد من يدعي الولاية وليس من أهلها، فقد يكون صوفياً قبورياً، أو رافضياً زنديقاً، ولا عجب إن حصل منهم ذلك، فقد حصلت هذه الدعوى من اليهود والنصارى، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ مَنْ أَنْبَأُ اللَّهَ وَاحْتَبَاهُ قُلُوبُهُمْ فَلِمَ يُعَذِّبُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ بَلِ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقد ألفت العلماء في التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان؛ تمييزاً بين أهل الحق والضلال.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ص(٣): فمن شهد له محمد صلى الله عليه وسلم بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أعداء الله وأولياء الشياطين.

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن لله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِيهِ أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ اقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ أَنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿المائدة: ٥١-٥٦﴾، وقال تعالى:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٤].

وذكر أولياء الشيطان فقال تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿النحل: ٩٨-١٠٠﴾ وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَتَلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَد جَبَعُوا لَكُمْ فَأَحْشَوْهُمْ فَرَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّم يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ

يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا ﴿الأعراف: ٢٧-٢٨﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿الأعراف: ٣٠﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّدُوا لَكُمْ ﴿الأنعام: ١٢١﴾، وقال الخليل عليه السلام: ﴿يَتَأْتِيَ إِيَّيَ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿مريم: ٤٥﴾، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِي وَعَدُوَكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْفُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ ﴿الآيات﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿المتحنة: ٥﴾. انتهى

وقد ذكر **رحمته** في ذلك الكتاب ما يحتاجه المسلم في التفريق بين أولياء الله تعالى حقاً وصدقاً، وبين مدعي الولاية من الدجالين والكذابين المبتدعين الضالين.

قال الشوكاني **رحمته** في "قطر الولي على حديث الولي" ص(٢٣٧): وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لِلْوَلِيِّ مِنْ أَنْ يَكُونَ مُقْتَدِيًّا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْمَعْيَارُ الَّذِي يَعْرِفُ بِهِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُ شَيْءٌ مِّمَّا يُخَالِفُ هَذَا الْمَعْيَارَ فَهُوَ رَدٌّ عَلَيْهِ، وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْتَقِدَ فِيهِ أَنَّهُ وَلِيُّ اللَّهِ، فَإِنْ أَمْثَلَ هَذِهِ الْأُمُورَ تَكُونُ مِنْ أَعْمَالِ الشَّيَاطِينِ، كَمَا نَشَاهَدُهُ فِي الَّذِينَ لَهُمْ تَابِعٌ مِنَ الْجَنِّ. فَإِنَّهُ قَدْ يَظْهَرُ عَلَى يَدِهِ مَا يَظُنُّ مَنْ لَمْ يَسْتَحْضِرْ هَذَا الْمَعْيَارَ أَنَّهُ كَرَامَةٌ. وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَخَارِيقُ شَيْطَانِيَّةٍ وَتَلْبِيسَاتٍ إِبْلِيسِيَّةٍ.

وَهَذَا تَرَاهُ يَظْهَرُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْعِ، بَلْ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَمَنْ يَتْرُكُ فَرَائِضَ اللَّهِ
سُبْحَانَهُ وَيَتَلَوِّثُ بِمَعَاصِيهِ. لِأَنَّ الشَّيْطَانَ أَمِيلٌ إِلَيْهِمْ لِلإِشْرَاقِ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ فِي
مُخَالَفَةِ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ.

وَقَدْ يَظْهَرُ شَيْءٌ مِمَّا يَظُنُّ أَنَّهُ كَرَامَةٌ مِنْ أَهْلِ الرِّيَاضَةِ وَتَرْكِ الإِسْتِكْثَارِ مِنْ
الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ عَلَى تَرْتِيبِ مَعْلُومٍ، وَقَانُونِ مَعْرُوفٍ. حَتَّى يَنْتَهِيَ حَالَهُ إِلَى أَنْ
لَا يَأْكُلُ إِلَّا فِي أَيَّامِ ذَوَاتِ الْعُدَدِ، وَيَتَنَاوَلُ بَعْدَ مُضِيِّ أَيَّامٍ شَيْئًا يَسِيرًا. فَيَكُونُ لَهُ
بِسَبَبِ ذَلِكَ بَعْضُ صَفَاءٍ مِنَ الْكُدُورَاتِ الْبَشَرِيَّةِ، فَيَدْرِكُ مَا لَا يُدْرِكُهُ غَيْرُهُ،
وَلَيْسَ هَذَا مِنَ الْكِرَامَاتِ فِي شَيْءٍ. وَلَوْ كَانَ مِنَ الْكِرَامَاتِ الرِّبَانِيَّةِ، وَالتَّفَضُّلَاتِ
الرَّحْمَانِيَّةِ، لَمْ يَظْهَرِ عَلَى أَيْدِي أَعْدَاءِ اللَّهِ، كَمَا يَقَعُ كَثِيرًا مِنَ الْمُرْتَضِينَ مِنْ كُفْرِهِ
الْهُنْدِ الَّذِينَ يَسْمُونَهُمُ الْآنَ (الْجُوكِيَّة).

وَقَدْ يَظْهَرُ شَيْءٌ مِمَّا يَظُنُّ أَنَّهُ كَرَامَةٌ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْمَجَانِينِ. وَسَبَبُ ذَلِكَ
كَمَا ذَكَرَهُ الْحُكَمَاءُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَصْنَعُهُ الْفِكْرُ مِنَ التَّفْصِيلِ وَالتَّدْبِيرِ،
الَّذِينَ يَسْتَمِرُّونَ لِلْعُقْلَاءِ. فَيَكُونُ لِعَقْلِهِ إِدْرَاكٌ لَا يَكُونُ لِلْعُقْلَاءِ، فَيَأْتِي فِي بَعْضِ
الْأَحْيَانِ بِمُكَاشَفَاتٍ صَحِيحَةٍ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَتَلَوِّثٌ بِالنَّجَاسَةِ مُرْتَبِكٌ فِي
الْقَادُورَاتِ قَاعِدٍ فِي الْمَزَابِلِ، وَمَا يَشَابِهُهَا فَيَظُنُّ مِنْ لَا حَقِيقَةَ عِنْدَهُ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ
اللَّهِ، وَذَلِكَ ظَنٌّ بَاطِلٌ، وَتَخِيلٌ مُخْتَلٌ، وَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ مَجْنُونٌ قَدْ رَفَعَ اللَّهُ عَنْهُ قَلَمَ
التَّكْلِيفِ، وَلَمْ يَكُنْ وَلِيًّا لِلَّهِ، وَلَا عَدُوًّا. انْتَهَى

قوله تعالى: ﴿فَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾:

يقول تعالى ذكره خبراً عنهم أنهم يستنصرون الله تعالى على القوم الكافرين، وقد قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

ومن أسباب النصر: طاعة الله تعالى، فقد قال جل في علاه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وهو تعالى خير الناصرين، ونعم المولى ونعم النصير، قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الأنفال: ٤٠].

وكان رسول الله ﷺ يستغيث بالله تعالى كثيراً، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

وفي «المسند» (١٩٩٧): عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَدْعُو: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَأَمْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرْ الْهُدَى إِلَيَّ، وَأَنْصُرْنِي عَلَيَّ مِنْ بَغْيِ عَلِيٍّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَارًا، لَكَ ذَكَارًا، لَكَ رَهَابًا، لَكَ مَطْوَاعًا، إِلَيْكَ مُخْبِتًا، لَكَ أَوَاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَاهْدِ قَلْبِي وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاسْأَلْ سَخِيمَةَ قَلْبِي». وفي «المسند» (١٨٩٤٠) عَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ أَيَّامَ حُنَيْنٍ يُحْرِّكُ شَفْتَيْهِ بَعْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ بِشَيْءٍ، لَمْ نَكُنْ نَرَاهُ يَفْعَلُهُ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَرَاكَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ تَكُنْ تَفْعَلُهُ فَمَا هَذَا الَّذِي تُحْرِّكُ

شَفَيْتِكَ؟ قَالَ: «إِنَّ نَبِيًّا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَحَبَبْتَهُ كَثْرَةُ أُمَّتِهِ، فَقَالَ: لَنْ يَرُومَ هَؤُلَاءِ شَيْءٌ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَنْ خَيْرُ أُمَّتِكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ نُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَيَسْتَيْحِجَهُمْ، أَوْ الْجُوعَ، وَإِمَّا أَنْ أُرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ، فَشَاوَرَهُمْ، فَقَالُوا: أَمَّا الْعَدُوُّ، فَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِمْ، وَأَمَّا الْجُوعُ فَلَا صَبْرَ لَنَا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ، فَأَرْسَلَ عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ، فَمَاتَ مِنْهُمْ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ سَبْعُونَ أَلْفًا» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَأَنَا أَقُولُ الْآنَ - حَيْثُ رَأَى كَثْرَتَهُمْ - : اللَّهُمَّ بِكَ أَحَاوِلْ، وَبِكَ أَصَاوِلْ، وَبِكَ أُقَاتِلْ».

والناظر في غزوات النبي ﷺ وسراياه يجد بيان ذلك في كثير من المواطن ففي "صحيح مسلم" (١٧٦٣): عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمَ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبِدْ فِي الْأَرْضِ»، فَمَا زَالَ يَهْتَفُ بِرَبِّهِ، مَا دَامَ يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِذَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَاتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِذَاؤَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ التَّرَمَّهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشِدَتَكَ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَحَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوِطِ فَوْقَهُ وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومَ، فَظَنَّ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًّا، فَظَنَّ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خَطَمَ أَنْفَهُ، وَشَقَّ وَجْهَهُ، كَضَرْبَةِ السَّوِطِ فَاخْضَرَ

ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الْأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّلَاثَةِ»، فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسْرُوا سَبْعِينَ، قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أُسْرُوا الْأَسَارَى، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ: «مَا تَرُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونَ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمْكِنَّا فَتَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمْكِنَ عَلَيَّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمْكِنِي مِنْ فُلَانٍ نَسِيبًا لِعُمَرَ، فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أُمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهُوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءَ بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءَ تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمِ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ عَدَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» - شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ - وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٩]، فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ.



الخاتمة

تضمنت هذه الثلاث الآيات معانٍ عظيمة وجلية، من مهمات الدين، ففيها: الجمع بين الترغيب والترهيب، وفيها: بيان أصول الدين وقواعده العظام، بل فيها: مهمات العقيدة والتوحيد، وبيان حال المؤمنين في الرجوع إلى الله والتوسل إليه بصالح القول والعمل، وفيها: بيان لرحمة الله تعالى الواسعة، وبيان لشفقة رسول الله صلى عليه وسلم على أمته ودلالتهم إلى ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

وفيها: أن الله تعالى ينسخ ما شاء قال تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٦]، قال ابن كثير **رحمته** في "تفسيره" (١/ ٣٧٥): وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ ﴾ مَا يُنْقَلُ مِنْ حُكْمِ آيَةٍ إِلَىٰ غَيْرِهِ فَبَدَلُهُ وَغَيْرُهُ، وَذَلِكَ أَنْ يُجَوَّلَ الْحَلَالُ حَرَامًا وَالْحَرَامُ حَلَالًا وَالْمُبَاحُ مَحْظُورًا، وَالْمَحْظُورُ مُبَاحًا. وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْحُظْرِ وَالْإِطْلَاقِ وَالْمَنْعِ وَالْإِبَاحَةِ. فَأَمَّا الْأَخْبَارُ فَلَا يَكُونُ فِيهَا نَاسِخٌ وَلَا مَنْسُوخٌ. وَأَصْلُ النَّسْخِ مِنْ نَسَخِ الْكِتَابِ، وَهُوَ نَقْلُهُ مِنْ نُسخَةٍ أُخْرَىٰ إِلَىٰ غَيْرِهَا، فَكَذَلِكَ مَعْنَىٰ نَسْخِ الْحُكْمِ إِلَىٰ غَيْرِهِ، إِنَّهَا هُوَ تَحْوِيلُهُ وَنَقْلُ عِبَادَةِ إِلَىٰ غَيْرِهَا. وَسَوَاءٌ نَسَخَ حُكْمُهَا أَوْ خَطَّهَا، إِذْ هِيَ فِي كِلْتَا حَالَيْهَا مَنْسُوخَةٌ. وَأَمَّا عُلَمَاءُ الْأُصُولِ فَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُهُمْ فِي حَدِّ النَّسْخِ، وَالْأَمْرُ فِي ذَلِكَ قَرِيبٌ؛ لِأَنَّ مَعْنَىٰ النَّسْخِ الشَّرْعِيِّ مَعْلُومٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ وَلِخَصِّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ رَفْعُ الْحُكْمِ بِدَلِيلٍ شَرْعِيِّ مُتَأَخِّرٍ. فَاذْدِرَجَ فِي ذَلِكَ نَسْخُ الْأَخْفِ بِالْأَثْقَلِ، وَعَكْسِهِ، وَالنَّسْخُ لَا إِلَىٰ

بَدَلٍ. وَأَمَّا تَفَاصِيلُ أَحْكَامِ النَّسْخِ وَذِكْرُ أَنْوَاعِهِ وَشُرُوطِهِ فَمَبْسُوطٌ فِي فَنَّ أُصُولِ
الْفِقْهِ. انتهى

وفي البخاري (٤٥٤٦): عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:
أَحْسِبُهُ ابْنَ عُمَرَ: ﴿وَأِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] قَالَ:
(نَسَخْتَهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا).

وفي الآية بيان لسعة رحمة الله تعالى واستجابته لدعاء أوليائه، وفي ذلك
يقول الله ﷻ: قد فعلت، قد فعلت، كما تقدم.

حيث دعا المؤمنون ربهم بهذا الدعاء العظيم، وذلت به ألسنتهم، فأنزل
الله ﷻ الآيات مخبراً عن حالهم وعن تضرعهم إلى مليكهم وربهم، ثم تفضل
عليهم بفضله العظيم، فاستجاب دعاءهم، وحقق رجاءهم، وكشف كربتهم،
وتجاوز عن عما نزل بهم من الشدة؛ لأن الإنسان قد يطرأ في قلبه من الخواطر ما
لا قدرة له على رده وإزالته، إلا أنه ينبغي له التضرع لله والاستغاثة به، ففي
حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ
فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبِّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ
فَلَيْسَتْ عِذَّةُ اللَّهِ وَلَيْسَتْ» متفق عليه: البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

وقد قال تعالى في بيان منزلة الدعاء: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي
قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي «المسند» (١٨٣٥٢) عَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ [غافر: ٦٠].

فلا يجوز القنوط من رحمة الله تعالى بحال، فهو الرحيم الرحمن الكريم المنان، قال تعالى: ﴿لَا تَقْنُطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

وفيها: دلالة - كما تقدم - على وجوب الاستمرار على الخير، وفي دعاء المؤمنين قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [آل عمران: ٨].

وفي مسلم (٢٦٥٤): عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُصْرِفُهَا حَيْثُ يَشَاءُ»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصْرِفِ الْقُلُوبِ اصْرِفْ قُلُوبَنَا إِلَى طَاعَتِكَ».

وهذا تعليق مختصر على هذه الآية العظيمة، وإلا حقها أكثر من ذلك، فهي من كلام الله تعالى المبارك، قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]. فمن بركته دلالاته على العلوم الكثيرة بأوجز عبارة، كيف لا؟! وهو كلام الله تعالى، ووحيه، وتنزيله، ونوره، وهده، ورحمته، وشفاه. على ما بينت ذلك في كتابي «هداية القرآن إلى التوحيد»، لكن ما لا يدرك كله لا يترك جله.

وأختم بهذا الكلام الملخص لما فيها، قال شيخ الإسلام رحمته الله: كما في «مجموع الفتاوى» (١٤١/١٢٩-١٤١): اعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْطَى نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَبَارَكَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزِ تَحْتِ الْعَرْشِ، لَمْ يُؤْتِ مِنْهُ نَبِيًّا

قَبْلَهُ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذِهِ الْآيَاتِ، وَفَهِمَ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ حَقَائِقِ الدِّينِ، وَقَوَاعِدِ
 الْإِيمَانِ الْحُمْسِ، وَالرَّدِّ عَلَى كُلِّ مُبْطِلٍ، وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ كَمَالِ نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى
 هَذَا النَّبِيِّ ﷺ وَأُمَّتِهِ، وَحُبِّهِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ، وَتَفْضِيلِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ؛
 فَلْيَهْنِهِ الْعِلْمُ. وَلَوْ ذَهَبْنَا نَسْتَوْعِبُ الْكَلَامَ فِيهَا لَخَرَجْنَا عَنْ مَقْصُودِ الْكِتَابِ،
 وَلَكِنْ لَا بُدَّ مِنْ كَلِمَاتٍ يَسِيرَةٍ تُشِيرُ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ، فنَقُولُ: لَمَّا كَانَتْ (سُورَةُ
 الْبَقَرَةِ) سَنَامَ الْقُرْآنِ، وَأَكْثَرَ سُورِهِ أَحْكَامًا، وَأَجْمَعَهَا لِقَوَاعِدِ الدِّينِ: أُصُولِهِ
 وَفُرُوعِهِ، وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى ذِكْرِ أَقْسَامِ الْخَلْقِ: الْمُؤْمِنِينَ، وَالْكَافِرِينَ، وَالْمُنَافِقِينَ،
 وَذِكْرِ أَوْصَافِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ، وَذِكْرِ الْأَدَلَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى إِبْثَاتِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى،
 وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَذِكْرِ نِعَمِهِ، وَإِبْثَاتِ نُبُوَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَتَقْرِيرِ الْمَعَادِ، وَذِكْرِ
 الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَمَا فِيهِمَا مِنَ النِّعَمِ وَالْعَذَابِ.

ثُمَّ ذِكْرِ تَخْلِيقِ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ، ثُمَّ ذِكْرِ خَلْقِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِ بِالتَّعْلِيمِ وَإِسْجَادِ مَلَائِكَتِهِ لَهُ وَإِدْخَالِهِ الْجَنَّةَ، ثُمَّ ذِكْرِ مِحْنَتِهِ مَعَ
 إِبْلِيسَ وَذِكْرِ حُسْنِ عَاقِبَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثُمَّ ذِكْرِ الْمُنَازَرَةِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنَ
 الْيَهُودِ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، ثُمَّ ذِكْرِ النَّصَارَى وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَتَقْرِيرِ
 عِبُودِيَّةِ الْمَسِيحِ، ثُمَّ تَقْرِيرِ النَّسْخِ وَالْحِكْمَةِ فِي وُقُوعِهِ، ثُمَّ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ
 وَتَقْرِيرِ تَعْظِيمِهِ وَذِكْرِ بَانِيهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ تَقْرِيرِ الْحَنِيفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ
 الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَسْفِيهِ مَنْ رَغِبَ عَنْهَا وَوَصِيَّةِ بَيْنِهِ بِهَا.. وَهَكَذَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى
 آخِرِ السُّورَةِ، فَخْتَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِآيَاتِ جَوَامِعِ مُقَرَّرَةٍ لِحَمِيعِ مَضْمُونِ السُّورَةِ،
 فَقَالَ تَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ
 تُخَفُّوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ﴾. فَأَخْبَرَ تَعَالَى: أَنَّ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مُلْكُهُ وَحَدُّهُ لَا

تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ شَيْءٌ عَنْ قُدْرَتِهِ
 أَلْبَتَّةَ، وَأَنَّ كُلَّ مَقْدُورٍ وَاقِعٌ بِقُدْرَتِهِ، فَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الْمَجُوسِ الشَّنُونَةِ
 وَالْفَلَّاسِفَةِ وَالْقُدْرِيَّةِ الْمَجُوسِيَّةِ، وَعَلَى كُلِّ مَنْ أَخْرَجَ شَيْئًا مِنَ الْمَقْدُورَاتِ عَنْ
 خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ - وَهُمْ طَوَائِفُ كَثِيرُونَ. فَتَضَمَّنَتِ الْآيَةُ إِثْبَاتَ التَّوْحِيدِ، وَإِثْبَاتَ
 الْعِلْمِ بِالْجُزْئِيَّاتِ وَالْكُلِّيَّاتِ، وَإِثْبَاتَ الشَّرَائِعِ وَالنُّبُوتِ، وَإِثْبَاتَ الْمَعَادِ وَالشُّوَابِ
 وَالْعِقَابِ، وَقِيَامِ الرَّبِّ عَلَى خَلْقِهِ بِالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ، وَإِثْبَاتَ كَمَالِ الْقُدْرَةِ
 وَعُمُومِهَا، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ حُدُوثَ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ؛ لِأَنَّ الْقَدِيمَ لَا يَكُونُ مَقْدُورًا
 وَلَا مَفْعُولًا. ثُمَّ إِنَّ إِثْبَاتَ كَمَالِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ يَسْتَلْزِمُ إِثْبَاتَ سَائِرِ صِفَاتِهِ الْعُلَى،
 وَلَهُ مِنْ كُلِّ صِفَةٍ اسْمٌ حَسَنٌ، فَيَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى، وَكَمَالِ الْقُدْرَةِ
 يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ فَعَالًا لِمَا يَرِيدُ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَنْ كُلِّ مَا يُضَادُّ كَمَالَهُ،
 فَيَتَضَمَّنُ تَنْزِيهَهُ عَنِ الظُّلْمِ الْمُنَافِي لِكَمَالِ غِنَاهُ وَكَمَالِ عِلْمِهِ؛ إِذِ الظُّلْمُ إِنَّمَا يَصْدُرُ
 عَنْ مَحْتِاجٍ أَوْ جَاهِلٍ، وَأَمَّا الْغِنَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ الْعَالَمِ بِكُلِّ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ فَإِنَّهُ
 يَسْتَحِيلُ مِنْهُ الظُّلْمُ، كَمَا يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْعَجْزُ الْمُنَافِي لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَالْجَهْلُ الْمُنَافِي
 لِكَمَالِ عِلْمِهِ. فَتَضَمَّنَتِ الْآيَةُ هَذِهِ الْمَعَارِفَ كُلَّهَا بِأَوْجَزِ عِبَارَةٍ وَأَفْصَحِ لَفْظٍ
 وَأَوْضَحِ مَعْنَى. وَقَدْ عَرَفْتَ بِهَذَا أَنَّ الْآيَةَ لَا تَقْتَضِي الْعِقَابَ عَلَى خَوَاطِرِ
 النُّفُوسِ الْمُجَرَّدَةِ، بَلْ إِنَّمَا تَقْتَضِي مُحَاسَبَةَ الرَّبِّ عَبْدَهُ بِهَا، وَهِيَ أَعَمُّ مِنَ الْعِقَابِ،
 وَالْأَعَمُّ لَا يَسْتَلْزِمُ الْأَخْصَّ، وَبَعْدَ مُحَاسَبَتِهِ بِهَا يَعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ،
 وَعَلَى هَذَا فَالْآيَةُ مُحْكَمَةٌ لَا نَسْخَ فِيهَا، وَمَنْ قَالَ مِنَ السَّلَفِ: نَسَخَهَا مَا بَعْدَهَا،
 فَمُرَادُهُ بَيَانُ مَعْنَاهَا وَالْمُرَادِ مِنْهَا، وَذَلِكَ يُسَمَّى نَسْخًا فِي لِسَانِ السَّلَفِ، كَمَا
 يُسَمُّونَ الْإِسْتِنَاءَ نَسْخًا. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ
 وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ فَهَذِهِ شَهَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ

عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِإِيْمَانِهِ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ إِعْطَاءَهُ ثَوَابَ
 أَكْمَلِ أَهْلِ الْإِيْمَانِ - زِيَادَةَ عَلَى ثَوَابِ الرَّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ - لِأَنَّهُ شَارَكَ الْمُؤْمِنِينَ فِي
 الْإِيْمَانِ، وَنَالَ مِنْهُ أَعْلَى مَرَاتِبِهِ، وَامْتَّازَ عَنْهُمْ بِالرَّسَالَةِ وَالنُّبُوَّةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿أُنزِلَ
 إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ كَلَامُهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ، وَمِنْهُ نَزَلَ لَا مِنْ غَيْرِهِ، كَمَا قَالَ
 تَعَالَى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وَقَالَ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ
 رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠]، وَهَذَا أَحَدُ مَا احْتَجَّ بِهِ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ
 الْقَائِلِينَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِالْقُرْآنِ، قَالُوا: فَلَوْ كَانَ كَلَامًا لِغَيْرِ اللَّهِ لَكَانَ مُنَزَّلًا مِنْ
 ذَلِكَ الْمَحَلِّ لَا مِنَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ الْقُرْآنَ صِفَةٌ لَا تَقُومُ بِنَفْسِهَا؛ بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿وَسَخَّرَ
 لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فَإِنَّ تِلْكَ أَعْيَانُ قَائِمَةٌ
 بِنَفْسِهَا، فَهِيَ مِنْهُ خَلْقًا، وَأَمَّا الْكَلَامُ فَوْصَفَ قَائِمٌ بِالتَّكَلُّمِ، فَلَمَّا كَانَ مِنْهُ فَهُوَ
 كَلَامُهُ؛ إِذْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ. ثُمَّ شَهِدَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَتَمِّهِمْ
 آمَنُوا بِمَا آمَنَ بِهِ رَسُولُهُمْ ثُمَّ شَهِدَ لَهُمْ جَمِيعًا بِأَتَمِّهِمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
 وَرُسُلِهِ، فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الشَّهَادَةُ إِيْمَانَهُمْ بِقَوَاعِدِ الْإِيْمَانِ الْخَمْسَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ
 أَحَدٌ مُؤْمِنًا إِلَّا بِهَا، وَهِيَ: الْإِيْمَانُ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.
 وَقَدْ ذَكَرَ تَعَالَى هَذِهِ الْأُصُولَ الْخَمْسَةَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ وَوَسَطِهَا وَآخِرِهَا، فَقَالَ فِي
 أَوَّلِهَا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٤]، فَالْإِيْمَانُ
 بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيْمَانُ بِالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ وَالْمَلَائِكَةِ، ثُمَّ
 قَالَ: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وَالْإِيْمَانُ بِاللَّهِ يَدْخُلُ فِي الْإِيْمَانِ بِالْغَيْبِ، وَفِي الْإِيْمَانِ
 بِالْكِتَابِ وَالرُّسُلِ، فَتَضَمَّنَتْ الْإِيْمَانُ بِالْقَوَاعِدِ الْخَمْسِ. وَقَالَ فِي وَسَطِهَا: ﴿وَلَكِنَّ
 الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]،
 ثُمَّ حَكَى عَنْ أَهْلِ الْإِيْمَانِ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ فَنُؤْمِنُ

بِعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ، فَلَا يَنْفَعُنَا إِيْمَانُنَا بِمَنْ آمَنَّا بِهِ مِنْهُمْ، كَمَا لَمْ يَنْفَعِ أَهْلَ الْكِتَابِ ذَلِكَ؛ بَلْ نُؤْمِنُ بِجَمِيعِهِمْ وَنُصَدِّقُهُمْ وَلَا نُفَرِّقُ بَيْنَهُمْ، وَقَدْ جَمَعْتَهُمْ رِسَالَةُ رَبِّهِمْ فَفُرِّقَ بَيْنَ مَنْ جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَنُعَادِي رُسُلَهُ وَنَكُونُ مُعَادِينَ لَهُ. فَبَايَنُوا بِهَذَا الْإِيْمَانَ جَمِيعَ طَوَائِفِ الْكُفَّارِ الْمَكْذِبِينَ لِحَسْرِ الرُّسُلِ، وَالْمُصَدِّقِينَ لِبَعْضِهِمْ الْمَكْذِبِينَ لِبَعْضِهِمْ. وَتَضَمَّنَ إِيْمَانُهُمْ بِاللَّهِ إِيْمَانُهُمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَصِفَاتِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَعُمُومِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَكَمَالِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ، فَبَايَنُوا بِذَلِكَ جَمِيعَ طَوَائِفِ أَهْلِ الْبَدْعِ وَالْمُنْكَرِينَ لِذَلِكَ أَوْ لَشَيْءٍ مِنْهُ؛ فَإِنَّ كَمَالَ الْإِيْمَانِ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ وَتَنْزِيهَهُ عَمَّا نَزَّهُ نَفْسَهُ عَنْهُ فَبَايَنُوا بِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعَ طَوَائِفِ الْكُفْرِ وَفِرْقِ أَهْلِ الضَّلَالِ الْمُلْحِدِينَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ فَهَذَا إِقْرَارٌ مِنْهُمْ بِرُكْنِي الْإِيْمَانِ الَّذِي لَا يَقُومُ إِلَّا بِهِمَا، وَهُمَا: السَّمْعُ الْمُتَضَمِّنُ لِلْقَبُولِ؛ لَا مَجْرَدَ سَمْعِ الْإِدْرَاكِ الْمَشْتَرَكِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَفَّارِ؛ بَلْ سَمْعَ الْفَهْمِ وَالْقَبُولِ، وَالثَّانِي: الطَّاعَةُ الْمُتَضَمِّنَةُ لِكَمَالِ الْإِنْقِيَادِ وَامْتِثَالِ الْأَمْرِ، وَهَذَا عَكْسُ قَوْلِ الْأُمَّةِ الْغَضَبِيَّةِ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ كَمَالَ إِيْمَانِهِمْ وَكَمَالَ قَبُولِهِمْ وَكَمَالَ انْقِيَادِهِمْ. ثُمَّ قَالُوا: ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ لَمْ يُوفُوا مَقَامَ الْإِيْمَانِ حَقَّهُ مَعَ الطَّاعَةِ وَالْإِنْقِيَادِ الَّذِي يَقْتَضِيهِ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ لَا بُدَّ أَنْ تَمِيلَ بِهِمْ غَلَبَاتُ الطَّبَاعِ وَدَوَاعِي الْبَشَرِيَّةِ إِلَى بَعْضِ التَّقْصِيرِ فِي وَاجِبَاتِ الْإِيْمَانِ، وَأَنَّهُ لَا يُلْمُ شَعَثُ ذَلِكَ إِلَّا مَغْفِرَةَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ؛ سَأَلُوهُ عُفْرَانَهُ الَّذِي هُوَ غَايَةُ سَعَادَتِهِمْ وَنَهَايَةُ كَمَالِهِمْ؛ فَإِنَّ غَايَةَ كُلِّ مُؤْمِنٍ الْمَغْفِرَةَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَقَالُوا: ﴿عُفْرَانِكَ رَبَّنَا﴾، ثُمَّ اعْتَرَفُوا أَنَّ مَصِيرَهُمْ وَمَرَدَّهُمْ إِلَى مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنَ الرَّجُوعِ إِلَيْهِ، فَقَالُوا: ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾. فَتَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ إِيْمَانَهُمْ بِهِ وَدُخُولَهُمْ تَحْتَ طَاعَتِهِ

وَعِبُودِيَّتِهِ وَاعْتِرَافِهِمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ وَاضْطِرَارِهِمْ إِلَى مَغْفِرَتِهِ وَاعْتِرَافِهِمْ بِالتَّقْصِيرِ فِي حَقِّهِ وَإِقْرَارِهِمْ بِرُجُوعِهِمْ إِلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿فَنَفَى بِذَلِكَ مَا تَوَهَّمُوهُ مِنْ أَنَّهُ يُعَذِّبُهُمْ بِالْخَطَرَاتِ الَّتِي لَا يَمْلِكُونَ دَفْعَهَا، وَأَنَّهَا دَاخِلَةٌ تَحْتَ تَكْلِيفِهِ، فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ لَا يُكَلِّفُهُمْ إِلَّا وُسْعَهُمْ، فَهَذَا هُوَ الْبَيَانُ الَّذِي قَالَ فِيهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: فَنَسَخَهَا اللَّهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾. وَقَدْ تَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّ جَمِيعَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ أَمْرًا وَنَهْيًا فَهُمْ مُطِيقُونَ لَهُ قَادِرُونَ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُكَلِّفُهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَفِي ذَلِكَ رَدُّ صَرِيحٍ عَلَى مَنْ زَعَمَ خِلَافَ ذَلِكَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِعِبَادَتِهِ وَضَمَّنَ أَرْزَاقَهُمْ فَكَلَّفَهُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ مَا يَسْعُونَهُ وَأَعْطَاهُمْ مِنَ الرِّزْقِ مَا يَسْعُهُمْ، فَتَكْلِيفُهُمْ يَسْعُونَهُ وَأَرْزَاقُهُمْ تَسْعُهُمْ، فَهُمْ فِي الوُسْعِ فِي رِزْقِهِ وَأَمْرِهِ: وَسِعُوا أَمْرَهُ وَوَسِعَهُمْ رِزْقُهُ، فَفَرَّقَ بَيْنَ مَا يَسْعُ الْعَبْدُ وَمَا يَسْعُهُ الْعَبْدُ، وَهَذَا هُوَ اللَّائِقُ بِرَحْمَتِهِ وَبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَحِكْمَتِهِ وَغَنَاهُ؛ لَا قَوْلٌ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ كَلَّفَهُمْ مَا لَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ أَلْبَتَّةَ وَلَا يُطِيقُونَهُ، ثُمَّ يُعَذِّبُهُمْ عَلَى مَا لَا يَعْمَلُونَهُ. وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ **عَلَيْهِ**: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾ كَيْفَ تَجِدُ تَحْتَهُ أَنَّهُمْ فِي سَعَةٍ وَمِنْحَةٍ مِنْ تَكْلِيفِهِ؛ لَا فِي ضَيْقٍ وَحَرَجٍ وَمَشَقَّةٍ؛ فَإِنَّ الوُسْعَ يَقْتَضِي ذَلِكَ فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ أَنَّ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ مَقْدُورٌ لَهُمْ مِنْ غَيْرِ عُسْرِ لَهُمْ وَلَا ضَيْقٍ وَلَا حَرَجٍ؛ بِخِلَافِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الشَّخْصُ فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ مَقْدُورًا لَهُ وَلَكِنْ فِيهِ ضَيْقٌ وَحَرَجٌ عَلَيْهِ، وَأَمَّا وُسْعُهُ الَّذِي هُوَ مِنْهُ فِي سَعَةٍ فَهُوَ دُونَ مَدَى الطَّاقَةِ وَالْمَجْهُودِ؛ بَلْ لِنَفْسِهِ فِيهِ مَجَالٌ وَمَتَّسِعٌ وَذَلِكَ مُنَافٍ لِلضَّيْقِ وَالْحَرَجِ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، بَلْ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا وُسْعَهَا﴾: ﴿إِلَّا يُسْرَهَا لَا عُسْرَهَا، وَلَمْ يُكَلِّفَهَا طَاقَتَهَا، وَلَوْ كَلَّفَهَا طَاقَتَهَا لَبَلَغَ

الْمَجْهُودُ. فَهَذَا فَهْمُ أَيْمَةِ الْإِسْلَامِ، وَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ مَنْ قَالَ إِنَّهُ كَلَّفَهُمْ مَا لَا يُطِيقُونَهُ أَلْبَتَّةَ وَلَا قُدْرَةَ لَهُمْ عَلَيْهِ؟! ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ ثَمَرَةَ هَذَا التَّكْلِيفِ وَغَايَتَهُ عَائِدَةٌ عَلَيْهِمْ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يَتَعَالَى عَنِ انْتِفَاعِهِ بِكَسْبِهِمْ وَتَضَرُّرِهِ بِاِكْتِسَابِهِمْ؛ بَلْ لَهُمْ كَسْبُهُمْ وَنَفْعُهُ. وَعَلَيْهِمْ اِكْتِسَابُهُمْ وَضَرَرُهُ، فَلَمْ يَأْمُرْهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ حَاجَةً مِنْهُ إِلَيْهِمْ؛ بَلْ رَحْمَةً وَإِحْسَانًا وَتَكْرُمًا، وَلَمْ يَنْهَهُمْ عَمَّا نَهَاَهُمْ عَنْهُ بُخْلًا مِنْهُ عَلَيْهِمْ بَلْ حَمِيَّةً وَحِفْظًا وَصِيَانَةً وَعَافِيَةً. وَفِيهِ أَيْضًا أَنَّ نَفْسًا لَا تُعَدُّ بِاِكْتِسَابِ غَيْرِهَا وَلَا تُثَابُ بِكَسْبِهِ، فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، ﴿وَلَا نُزِرْ وَازِرَةٌ وَزَرَ آخَرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وَفِيهِ أَيْضًا: إِثْبَاتُ كَسْبِ النَّفْسِ الْمُنَافِي لِلْجَبْرِ. وَفِيهِ أَيْضًا: اجْتِمَاعُ الْحِكْمَةِ فِيهِ فَإِمَّا كَسَبَ خَيْرًا أَوْ اِكْتَسَبَ شَرًّا، لَمْ يُبْطَلِ اِكْتِسَابُهُ كَسْبَهُ، كَمَا يَقُولُهُ أَهْلُ الْأَحْبَابِ وَالتَّخْلِيدِ؛ فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّ عَلَيْهِ مَا اِكْتَسَبَ وَلَيْسَ لَهُ مَا كَسَبَ، فَالْآيَةُ رَدٌّ عَلَى جَمِيعِ هَذِهِ الطَّوَائِفِ، فَتَأَمَّلْ كَيْفَ أَتَى فِيهَا لَهَا بِالْكَسْبِ الْحَاصِلِ وَلَوْ لِأَذْنَى مُلَابَسَةٍ وَفِيهَا عَلَيْهَا بِاِكْتِسَابِ الدَّلَالِ عَلَى الْإِهْتِمَامِ وَالْحِرْصِ وَالْعَمَلِ؛ فَإِنَّ اِكْتَسَبَ أَبْلَغُ مِنْ كَسَبَ، فَفِي ذَلِكَ تَنْبِيهُ عَلَى غَلْبَةِ الْفَضْلِ لِلْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ لِلْغَضَبِ.

ثُمَّ لَمَّا كَانَ مَا كَلَّفَهُمْ بِهِ عُهُودًا مِنْهُ وَوَصَايَا وَأَوَامِرَ تَجِبُ مُرَاعَاتُهَا وَالْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا وَأَنْ لَا يُخَلَّ بِشَيْءٍ مِنْهَا؛ وَلَكِنَّ غَلْبَةَ الطَّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ تَأْتِي إِلَّا النَّسِيَانَ وَالْخَطَأَ وَالضَّعْفَ وَالتَّقْصِيرَ، أَرْشَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَنْ يَسْأَلُوهُ مُسَامِحَتَهُ إِيَّاهُمْ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، وَرَفَعَ مُوجِبَهُ عَنْهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، أَي: لَا

تَكَلَّفْنَا مِنَ الْأَصَارِ الَّتِي يَثْقُلُ حَمْلُهَا مَا كَلَّفْتَهُ مَنْ قَبْلَنَا؛ فَإِنَّا أضعف أجسادًا وأقلَّ احتمالًا. ثُمَّ لَمَّا عَلِمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُنْفَكِّينَ مِمَّا يَقْضِيهِ وَيُقَدِّرُهُ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُنْفَكِّينَ مِمَّا يَأْمُرُهُمْ بِهِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْهُ، سَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، كَمَا سَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، فَقَالُوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، فَهَذَا فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْمَصَائِبِ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالتَّكْلِيفِ، فَسَأَلُوهُ التَّخْفِيفَ فِي النَّوْعَيْنِ. ثُمَّ سَأَلُوهُ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ وَالنَّصَرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ؛ فَإِنَّ بِهِذِهِ الْأَرْبَعَةَ تَتِمُّ لَهُمُ النِّعْمَةُ الْمُطْلَقَةُ، وَلَا يَصْفُو عَيْشٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا بِهَا، وَعَلَيْهَا مَدَارُ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ، فَالْعَفْوُ مُتَضَمِّنٌ لِإِسْقَاطِ حَقِّهِ قَبْلِهِمْ وَمُسَاحَاةٍ لَهُمْ بِهِ، وَالْمَغْفِرَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِرُفْعِ ذُنُوبِهِمْ وَإِقْبَالِهِ عَلَيْهِمْ وَرِضَاهُ عَنْهُمْ؛ بِخِلَافِ الْعَفْوِ الْمُجَرَّدِ؛ فَإِنَّ الْعَافِيَ قَدْ يَعْفُو وَلَا يَقْبَلُ عَلَى مَنْ عَفَا عَنْهُ وَلَا يَرْضَى عَنْهُ، فَالْعَفْوُ تَرْكُ مُحَضِّصٍ، وَالْمَغْفِرَةُ إِحْسَانٌ وَفَضْلٌ وَجُودٌ، وَالرَّحْمَةُ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْأَمْرَيْنِ مَعَ زِيَادَةِ الْإِحْسَانِ وَالْعَطْفِ وَالْبِرِّ، فَالثَّلَاثَةُ تَتَضَمَّنُ النَّجَاةَ مِنَ الشَّرِّ وَالْفَوْزَ بِالْخَيْرِ، وَالنُّصْرَةَ تَتَضَمَّنُ التَّمَكِينَ مِنْ إِعْلَانِ عِبَادَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَقَهْرِ أَعْدَائِهِ وَشِفَاءِ صُدُورِهِمْ مِنْهُمْ وَإِذْهَابِ غَيْظِ قُلُوبِهِمْ وَحِزَازَاتِ نَفُوسِهِمْ. وَتَوَسَّلُوا فِي خِلَالِ هَذَا الدُّعَاءِ إِلَيْهِ بِاعْتِرَافِهِمْ أَنَّهُ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَوْلَى لَهُمْ سِوَاهُ، فَهُوَ نَاصِرُهُمْ وَهَادِيهِمْ وَكَافِيهِمْ وَمُعِينُهُمْ وَجَبِيبُ دَعْوَاتِهِمْ وَمَعْبُودُهُمْ. فَلَمَّا تَحَقَّقَتْ قُلُوبُهُمْ بِهَذِهِ الْمَعَارِفِ، وَانْقَادَتْ وَذَلَّتْ لِعِزَّةِ رَبِّهَا وَمَوْلَاهَا، وَأَجَابَتْهَا جَوَارِحُهُمْ، أُعْطُوا كُلُّ مَا سَأَلُوهُ مِنْ ذَلِكَ، فَلَمْ يَسْأَلُوا شَيْئًا مِنْهُ إِلَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (قَدْ فَعَلْتَ). كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ذَلِكَ. فَهَذِهِ كَلِمَاتٌ قَصِيرَةٌ مُخْتَصِرَةٌ فِي مَعْرِفَةِ مَقْدَارِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْعَظِيمَةِ الشَّانِ،

الْجَلِيلَةَ الْمِقْدَارِ، الَّتِي خَصَّ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ وَأُمَّتَهُ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ .
 وَبَعْدُ، فَفِيهَا مِنَ الْمَعَارِفِ وَحَقَائِقِ الْعُلُومِ مَا تَعْجِزُ عَقُولُ الْبَشَرِ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ،
 وَاللَّهُ الْمَرْغُوبُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَحْرِمَنَا الْفَهْمَ فِي كِتَابِهِ، إِنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
 وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى مَنْ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ. انتهى

بهذا أرجو أن الله تعالى قد وفقني لذكر المهم في بيان هذه الآيات

ولو أردت التوسع أكثر لخرجت عن المقصود

وبالله التوفيق، والحمد لله على التمام

*



المحتويات

٣	مقدمة
٧	بعض فضائل الآيتين من آخر سورة البقرة
١٠	معنى قوله ﷺ: «كفتاه»:
١٣	مسألة: تسمية سورة البقرة بهذا الاسم:
١٣	مسألة: هل هذه الآية منسوخة أم محكمة:
١٦	تفاضل القرآن والأسماء والصفات:
٢٠	تفسير الآيات وبيان معانيها وبعض أحكامها
٣٩	بيان أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق:
٤٥	دلالة الآية على أركان الإيمان الستة:
٤٥	الإيمان بالله ﷻ أفضل الأعمال:
٤٧	أركان الإيمان بالله ﷻ:
٥٤	الإيمان بالملائكة:
٥٧	الإيمان بالأنبياء:
٥٩	الإيمان بالكتب:
٦٠	الإيمان باليوم الآخر والقدر:
٦٣	الإيمان بالقدر:
٦٤	ركن الإحسان:
٦٦	أركان الإسلام:
١١٦	الخاتمة
١٢٨	المحتويات